طرق توظيف فقه هدايات الصلاة في علاج المشكلات المعاصرة

إعداد

د. حاتم أحمد ياسين الأهدل

بحث مقدم للمؤتمر القرآني الدولي السنوي (مقدس ٨).

نظمه مركز بحوث القرآن الكريم بجامعة ملايا، بالشراكة مع: كرسي الملك عبد الله بن عبد العزيز للقرآن الكريم بجامعة أم القرى.

الأربعاء والخميس ٥- ٦ ربيع الأول ١٤٤٠هـ، الموافق ١٤- ١٥ نوفمبر ٢٠١٨م.

ماليزيا- كوالالمبور

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله وعلى اله وصحبه ومن والاه. أما بعد:

فتلبية لدعوة إخواننا في مركز مقدس للمشاركة في مؤتمرهم ال٨ في هدايات القرآن، فقد رأينا أن نشارك بهذه الورقة في محور: (طرق توظيف فقه الهدايات القرآنيَّة في علاج المشكلات المعاصرة).

وقد اخترنا هدايات الصلاة كنموذج لذلك؛ نظرا لما تكتنفه هذه العبادة من صلاح شامل يطال كل جوانب حياة الإنسان الفردية والمجتمعية؛ النظرية منها والتطبيقية، والشعورية والوجدانية، وذلك إن تمثلها العبد على الوجه المطلوب، وأداها بوسمها المضروب، الذي أراده ربنا الكريم، وأرشدت إليه هدايات كتابه المبين؛ حيث وقد اخبرنا الله بأن صلاة العبد جالبة لكل خير وفضيلة، دافعة لكل شر وبلية، فقال على جهة الإجمال: **{إِنَّ الصَّلاَةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاء وَالْمُنكَرِ} [العنكبوت:٤٥]**. وذلك إن تحققت بها الشروط، وتكاملت بها الأوصاف المستلهمة من هدايات آيات الكتاب العزيز، وهدي نبيه الكريم.

ومما تجدر ملاحظته أن الصلاة خص الأمر بها في القرآن بصيغة: (أقيموا)، متنقلا بين تصريفاتها المتنوعة: (أقام، يقيم، قياما)، ولهذه المفردات وما تحمله من إشارات في المبنى والمعنى دور في تجلية المقصود، ناهيك عن دلالات الاقتران ومضامين السياق؛ إذ أن ما يرشد إليه علم تراكيب الكلام ومناسبات السياق أكبر بكثير مما تتحمله الكلمات والمفردات من معان ودلالات، فإذا ما جمع بينهما، رجع المتأمل بأنفس الجواهر وأثمن الدرر، وحاز الطالب ما ضمته صدفها، ورمت إليه مقاصدها من عظيم العظات وجليل العبر، متجاوزا بذلك حدود الصوامع، وجدران المحاريب؛ بالغا بدلالاتها ومعانيها أعماق الشعور وشاسع الآفاق، فينعكس أثر أحوالها على الحياة بأبعادها العملية والزمانية والمكانية: **{وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّواْ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ}[البقرة:١٥٠]، {أَقِمِ الصَّلاَةَ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ إِلَى غَسَقِ اللَّيْلِ}[الإسراء:٧٨]**.

كما انه ما من شأن ذي بال أمر القرآن به، إلا كان الأمر به مقترنا بالأمر بالصلاة؛ مما يوحي بأنها الجدار الذي إليه تستند التكاليف، والعمود الذي تقوم عليه شؤون الحياة، فهي الشفاء الآمن من عللها، والدرع الواقي من أدوائها وأخطارها، كما أنها الرافعة الأجدر لبلوغ البشر كل غاية سامقة؛ إن أحسنوا إقامتها، وأجادوا التعاطي مع إيماءاتها، واخذوا الدروس والعبر من دلالاتها وإشاراتها، وتحصنوا بها واتكأوا عليها: **{وَاسْتَعِينُواْ بِالصَّبْرِ وَالصَّلاَةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلاَّ عَلَى الْخَاشِعِين}[البقرة:٤٥]**(كان إذا حزبه أمر صلى)[(١)]، وانطلقوا منها وآبوا إليها: (كَانَ ﷺ إِذَا قَدِمَ مِنْ سَفَرٍ بَدَأَ بِالْمَسْجِدِ فَرَكَعَ فِيهِ رَكْعَتَيْنِ)[(٢)]، ويكفي في معرفة قدرها وبيان منزلتها أنها اتصال بالخالق سبحانه، وكفى بهذا الاتصال من

---

(١) صحيح الجامع الصغير وزيادته (٢/ ٨٥٨)

(٢) صححه الالباني انظر التعليقات الحسان على صحيح ابن حبان (٤/ ٢٣٣)

شرف وما يستتبعه من قدر ومكانة للمتصل؛ تبعا لمكانة ومنزلة من يتصل به، ولا خير في اتصال لا تظهر آثاره وسماته في وجه صاحبه، حالا يحكيها ومقالا يرويها وذلك بطاعته وامتثال أمره، اتباعا لهديه واجتنابا لنهيه؛ ومن هنا كان صلاح صلاة العبد صلاحا لأمره كله.

والله ولي التوفيق.

الباحث/ د. حاتم الأهدل

خطة البحث:

تحتوي خطة البحث على مقدمة وفيها مطلبان، وصلب الموضوع وفيه مبحثان وفي كل مبحث مطالب على النحو التالي:

مقدمة وفيها مطلبان تمهيديان:

المطلب الأول/ تهيئة.

المطلب الثاني/ دلالات لغوية.

المبحث الأول: معاني الصلاة ومدلولاتها وفيه ثمانية مطالب:

المطلب الأول/أقيموا ودلالة التشبيه فيه.

المطلب الثاني/ سر القبول وخيط النجاة.

المطلب الثالث/ طهارة ونقاء.

المطلب الرابع/ تعقل وحضور.

المطلب الخامس/ استقامة وخشوع.

المطلب السادس/ إخبات وسكون.

المطلب السابع/ تحكم وسيطرة.

المطلب الثامن/ ذكر فاعل ودعاء خالص.

المبحث الثاني/ أعمال الصلاة وانعكاساتها وفية تسعة مطالب:

المطلب الأول / مسارعة للصلاة ومسابقة للخيرات.

المطلب الثاني / إمامة الصلاة وولاية الحكم تلازم وتشابه.

المطلب الثالث/ تقدم الصفوف وقيادة الشعوب أهلية وشروط.

المطلب الرابع / لا جماعة بدون وحدة والتحام.

المطلب الخامس/ الملاينة والمطاوعة ضرورة للجماعة والاجتماع.

المطلب السادس/شرط القبلة وسلامة الوجهة.

المطلب السابع/ القرآن لسان الصلاة ودستور الحياة.

المطلب الثامن/ النظام والإتقان.

المطلب التاسع/ صلاة من لم تحدث في نفسه صلاحا.

المقدمة

وفيها مطلبان:

المطلب الأول/ تهيئة:

إن الصلاة طمأنينة للنفس من صخب الحياة، وراحة للبال من هموم الدنيا، وفيحاء واسعة تهيم فيها الروح، وتنفك فيها عن سجن المادة، وتشف عن صفاقة الجسد؛ لتطل على رحاب الله الواسع. إنها رحلة تحليق في آفاق السماء؛ ليبلغ المرء بها مراتب الملأ الأعلى، ويلج بها منازل الخلص الشهود، فيحط رحاله على عتبات صاحب الفضل والجود، فيسكب عليه من سحائب إنعامه، ويفيض عليه من ترادفات أفضاله، ويذهله بجزيل عطائه وامتنانه؛ فتنقشع عن نفسه ملبدات الشكوك والهموم، وتنجلي عن بصره غشاوة العمى والغيوم؛ فيستبصر طريقه بما جاد عليه من الهدى والنور، هكذا كانت أول إطلالة للصلاة في كتاب الله تعالى: **{ذَلِكَ الْكِتَاب لاَ رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِين الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلاَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُون}[البقرة:٢-٣]**.

ثم إن الإيمان بالغيب من أولى صفات الذين يجود عليهم هذا الكتاب من قبس نوره وفيض هدايته، والصلاة هي الصفة الثانية المصاحبة للإيمان بالغيب، والمساعدة عليه، قرينة الإيمان بالغيب ومغذيته، وهكذا سنجد الصلاة يتكرر ذكرها في غير ما موضع، وغير ما مناسبة، تارة منفردة وتارة مقترنة؛ بما يكشف للمتأمل أن الصلاة هي الوصفة المصاحبة لكثير من القضايا الإيمانية، يشبه عملها عمل المضاد الحيوي، أو الفيتامين المقوي، المساعد للجسم على تجاوز الأخطار، والتعافي من كثير من الأمراض والأسقام، حيث يعتبر من أعظم الاختراعات البشرية، فبدونه قد تموت نتيجة جرح صغير، أو التهاب بسيط، وهو عبارة عن أجزاء حية تهاجم البكتيريا؛ لتقضي عليها؛ ولذلك يكون غالبا معززا ومصاحبا لكثير من الوصفات الطبية بما يحتويه من مواد طاردة ومقوية للمناعة، وهذا هو عمل الصلاة وأثرها في حياة الفرد والجماعة إنها: **{تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاء وَالْمُنكَرِ}[العنكبوت:٤٥]** كما أنها عون للعبد على كل مشقة وكريهة، مقوية لأهلها لبلوغ ما لا يبلغوه بغيرها: **{وَاسْتَعِينُواْ بِالصَّبْرِ وَالصَّلاَةِ}[البقرة:٤٥]**.

وكما أن المضاد لا يكفي المرة والمرتين، وإنما بالقدر الذي يكافئ الخطر ويدافع المرض، فكذلك هو شأن الصلاة جعلها الله للعبد متخللة ساعات يومه وأيام دهره، وكلما استكثر المرء منها فالله أكثر، والله شاكر عليم؛ لأنه ما دامت حياة الإنسان مليئة بالمخاطر ونفسه معرضة للخطأ في كل حين وآن، سواء كان ذلك عن تعمد أو نسيان، فلابد من تكرارها على مدار اليوم مرات ومرات؛ كي يطبب الله

بها القلوب ويزكي بها النفوس ويمحو الله بها الخطايا.

هذا" وقد زوده بقدرات فائقة على تصنيع وإنتاج المضاد المناسب للأمراض الجديدة عليه، والتي لم يسبق التعامل معها، بما يفي بمقاومتها والتخلص منها، عدا الأدواء المستعصية، والتي غالبا ما تكون من جنس الأسقام والأوجاع الناجمة عن عقوبة وغضب من الله؛ نتيجة فواحش أحدثها الناس وجاهروا بها، فهذه لا خلاص منها إلا بالتوبة والإقلاع عنها، كذلك هو شأن الصلوات الخمس، كفارات لأصحابها ما اجتنبت الكبائر، فهي أشبه بمراكز التداوي، ومشافي الاستطباب، وحصون لأصحابها من اختراق الأخطار الباطنة والظاهرة؛ وذلك لما في الصلاة ودلالاتها وشروطها وأركانها وواجباتها وصفاتها وهيئاتها من آثار وثمار تعود على عاجل وآجل دين الناس ودنياهم بالخير والصلاح، ناهيك عما لها من أثر روحي وقلبي ونفسي وعقلي يفي بسد الفجوة، وردم الهوة التي قد تتصدع بها حياة الناس، وتتردى بها أوضاعهم؛ بسبب ارتدادات أعمالهم وتراكمات أخطائهم.

وعلى هذا الأساس يتضح لنا بأنه ليس عبثا أن يتكرر ذكر الصلاة في أكثر من آية وفي أكثر من موضع وفي سياقات مختلفة؛ فقد اختلفت الوصفات العلاجية الربانية باختلاف الأعراض التي تعالجها السياقات القرآنية، فكما أن لترتيب السور والآيات دلالاتها، كذلك فإنه لعبارات الآية الواحدة حكما جليلة في دلالاتها وإشاراتها، وسرا عظيما في تراتيب كلماتها بل وحروفها، ووجها بليغا في أساليب تراكيبها وصياغاتها.

فمثلا هنا وفي هذا السياق سياق ذكر الغيب بأنواعه: (الله، الوحي، الآخرة) فإنه لما ضرب على الجسد حجابا حال دون نفاذه من أقطار السموات والأرض بحالته المادية الصرفة، وعجز العبد عن الوقوف على عالم الغيب الواسع في محيطه الزماني والمكاني؛ بسبب محدودية قدراته وإمكاناته، فقد جعل الله الصلاة للروح نافذة لهذا العالم وسلطانا للنفاذ إليه، وبابا لا يغلق تلج منه الروح وتعرج فتبلغ من الدرجات ما انتهى إليه صدقها حتى تقف بين يديه سبحانه، فتمتلئ جوانحها دفئا بمعرفته، وأنسا بلقائه وسكونا لأقداره، وتدرك بلطافتها ودقتها أضعاف أضعاف ما تدركه الحواس من عالم الماديات والمشاهدات.

روح منحها بارئها القدرة على أن تنفك عن عالمها السفلي لتصطف بالملأ الأعلى؛ فتشهد عالم الملكوت، وجعل روحها وراحتها بالجنوح لمصدرها وبالاقتراب من أصلها فتصيب من فيوضات خالقها وإمدادات موجدها، فتجد انسها ببلوغ غايتها، وتظفر بين يدي ربها بمنتهى راحتها: (قم يَا بِلَالُ فَأَرِحْنَا بِالصَّلَاة)[1]. وليس هذا ضربا من المبالغة أو نسجا من الخيال، فالصلاة إن أديت على وجهها جاءت بالأعاجيب، وتجلى للروح فيها من التجليات بقدر ما تهيأت لاستقباله منها، ثبت في الصحيحين أنه:

---

(١) مسند أحمد ط الرسالة (٣٨/ ٢٢٥)، أخرجه أبو داود صحيح، المشكاة (١٢٥٣)

(خَسَفَتِ الشَّمْسُ عَلَى عَهْدِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَصَلَّى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَالنَّاسُ مَعَهُ، فَقَامَ قِيَامًا طَوِيلًا نَحْوًا مِنْ سُورَةِ البَقَرَةِ، ثُمَّ رَكَعَ رُكُوعًا طَوِيلًا، ثُمَّ رَفَعَ، فَقَامَ قِيَامًا طَوِيلًا، وَهُوَ دُونَ القِيَامِ الأَوَّلِ، ثُمَّ رَكَعَ رُكُوعًا طَوِيلًا، وَهُوَ دُونَ الرُّكُوعِ الأَوَّلِ، ثُمَّ سَجَدَ، ثُمَّ قَامَ، فَقَامَ قِيَامًا طَوِيلًا، وَهُوَ دُونَ القِيَامِ الأَوَّلِ، ثُمَّ رَكَعَ رُكُوعًا طَوِيلًا، وَهُوَ دُونَ الرُّكُوعِ الأَوَّلِ، ثُمَّ رَفَعَ، فَقَامَ قِيَامًا طَوِيلًا، وَهُوَ دُونَ القِيَامِ الأَوَّلِ، ثُمَّ رَكَعَ رُكُوعًا طَوِيلًا، وَهُوَ دُونَ الرُّكُوعِ الأَوَّلِ، ثُمَّ رَفَعَ، ثُمَّ سَجَدَ، ثُمَّ انْصَرَفَ، ...قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، رَأَيْنَاكَ تَنَاوَلْتَ شَيْئًا فِي مَقَامِكَ هَذَا، ثُمَّ رَأَيْنَاكَ تَكَعْكَعْتَ؟ فَقَالَ: «إِنِّي رَأَيْتُ الجَنَّةَ، أَوْ أُرِيتُ الجَنَّةَ، فَتَنَاوَلْتُ مِنْهَا عُنْقُودًا، وَلَوْ أَخَذْتُهُ لَأَكَلْتُمْ مِنْهُ مَا بَقِيَتِ الدُّنْيَا، وَرَأَيْتُ النَّارَ، فَلَمْ أَرَ كَاليَوْمِ مَنْظَرًا قَطُّ..)[1].

وقد أراه الله الجنة عيانا في حادثة المعراج فكانت هذه المرة الثانية؛ إذ الصلاة هي المعراج الدائم لأهل الإيمان، وجدير بصلاة كهذه أن تبلغ بالعبد درجة الإحسان فينكشف له بها من حجب الغيب فيعبد الله كأنه يراه، ويستحضر الآخرة كأنها رأي العين: **{كَلاَّ لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِين لَتَرَوُنَّ الْجَحِيم}[التكاثر:٥ :٦]**، ولا عجب في هذا فبقدر علم الإنسان بربه، وحسن مقامه بين يديه، يريه الله من المقامات ما لا تبلغه عقول القاعدين، وهذا في حق عامة الناس، فما بالك إن كان في حق رسول رب العالمين، أخشع الناس وأعلمهم بالله؟! فقد بلغ من نقاء روحه في صلاته أن غلبت شفافيتها صفاقة الجسد وعتمته، فغدا يري من خلفه كما يرى من أمامه: (أَيُّهَا النَّاسُ، إِنِّي إِمَامُكُمْ، فَلَا تَسْبِقُونِي بِالرُّكُوعِ وَلَا بِالسُّجُودِ، وَلَا بِالْقِيَامِ وَلَا بِالِانْصِرَافِ، فَإِنِّي أَرَاكُمْ أَمَامِي وَمِنْ خَلْفِي وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ، لَوْ رَأَيْتُمْ مَا رَأَيْتُ لَضَحِكْتُمْ قَلِيلًا وَلَبَكَيْتُمْ كَثِيرًا قَالُوا: وَمَا رَأَيْتَ يَا رَسُولَ اللهِ قَالَ: رَأَيْتُ الْجَنَّةَ وَالنَّارَ)[2].

ولن يجد العبد طريقا ولا حالا يكون فيه أقرب إلى مولاه منه في الصلاة: **{كَلاَّ لاَ تُطِعْهُ وَاسْجُدْ وَاقْتَرِب}[العلق:١٩]**. (أَقْرَبُ مَا يَكُونُ الْعَبْدُ مِنْ رَبِّهِ، وَهُوَ سَاجِدٌ)[3]. فإذا ما اقترب العبد من الرب اقترب منه الرب- وهو قريب سبحانه على الدوام-: **{وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ}[البقرة:١٨٦]** ؛ ولكن خرج مخرج المكافأة؛ ليتقابل القرب بالقرب، ويتعانق الأنس بالأنس، ونقطة الالتقاء ومعقد اللقاء هي الصلاة: (أَقْرَبُ مَا يَكُونُ الرَّبُّ مِنَ الْعَبْدِ فِي جَوْفِ اللَّيْلِ الْآخِرِ)[4]، فيدلف المولى بالزمان، ويتزلف العبد فيه بالسجود. فمن سجد اتصل واقترب، ومن نأى عنه بان وابتعد، وشتان بين مشرق ومغرب: **{لَيْسُواْ سَوَاء مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَآئِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللّهِ آنَاء اللَّيْلِ وَهُمْ**

---

(١) صحيح البخاري (٧/ ٣١)

(٢) صحيح مسلم (١/ ٣٢٠)

(٣) صحيح مسلم (١/ ٣٥٠)

(٤) أخرجه الترمذي وقال حديث حسن صحيح والنسائي والحاكم وصححه الألباني في مشكاة المصابيح (١/ ٣٨٧)

يَسْجُدُون}[آل عمران:١١٣].

هذا " ومن هنا نطل على تعبيرات الأمر بالصلاة في القرآن، ونستشف منها بعض أسرارها، ونرتشف من رحيق إيحاءات ودلالات مضامينها، ونستلهم منها الدروس والعبر في المطلب التالي:

المطلب الثاني/ دلالات لغوية (أقيموا الصلاة):

أولا/ دلالات لفظ الصلاة :

مأخوذ من الصلا: وهو وسط الظهر من الإنسان، ومن كل ذي أربع. يقال: أصلت الفرس: استرخى صلاها.

وقيل الصلاة: الدعاء وهو أصل معانيها.

وقيل: الصلاة في اللغة مشتركة بين الدعاء والتعظيم والرحمة والبركة.

وقيل: إن الأصل في الصلاة اللزوم، وهي من أعظم الفروض الذي أمر الله بلزومها.

وقيل: إنها من صليت العود بالنار إذا لينته؛ لأن المصلي يلين بالخشوع.

وقيل: هي من الصلي، ومعنى صلّى الرجل أزال عن نفسه بهذه العبادة الصلى الذي هو نار الله الموقدة.

والحقيقة: أن الصلاة هي كل ما سبق، وأن في القيام بها تتحقق كل معانيها، ويرجع تعدد الأقوال فيها إلى تعدد المعاني وتنوعها، فذهب كل واحد يفسرها بما استظهره من المعنى، ونظر إليها من إحدى زوايا المبنى، وهي بمجملها تعني كل الزوايا. فهي دعاء لاشتمالها عليه فسميت به من قبيل تسمية الكل بالجزء، وهي تعظيم ورحمة وبركة، فتعظيم من العبد لربه، وهدى ورحمة وبركة من الله على عبده، وحركات مخصوصة يشترك فيها البدن كله، وأكثر حركة منه أوسطه، كما أنها تخلص صاحبها من الاصطلاء في نار جهنم؛ فتأكل النار كل شيء من ابن آدم إلا موضع سجوده[(١)].

ثانيا/ دلالات لفظ "أقيموا" :

الفعل أقيموا: مشتق من الإقامة يقال: أقامَ يُقيم، إقامةً، فهو مُقِيم ، والأمر أَقِمْ، والمفعول مُقام. ومعنى أقام الصَّلاةَ: أدامها، ووفَّاها بصورة كاملة. وأقام البناءَ: شيَّده ومنه: أقام قواعدَ البيت كقوله:**{يُرِيدُ أَنْ يَنقَضَّ فَأَقَامَهُ}**.

وأقام العودَ ونحوَه: عَدَّله وأزال عِوَجَه. وأقام أَوَدَه: أزال اعْوِجاجَه، وأصلح أمرَه، وقوَّم. أقام صلبَه: كفاه من الطعام ما يبقيه حيًّا. وأقام الحقَّ والعدلَ: أظهرَهُ، وحقَّقه ومنه قوله تعالى: **{وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلاَ تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ}[الرحمن:٩]**

---

(١) في صحيح البخاري (٩/ ١٢٨) : تَأْكُلُ النَّارُ ابْنَ آدَمَ إِلَّا أَثَرَ السُّجُودِ، حَرَّمَ اللَّهُ عَلَى النَّارِ أَنْ تَأْكُلَ أَثَرَ السُّجُودِ

وأقام وجهَه: وجّه اهتمامَه، ومنه قوله تعالى: **{فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا}[الروم:٢٧]**.

وأقام حفلةً: هيَّأها. ومنه أقام حفلَ عشاء- أقام وليمةً.

وأقام الشَّعائرَ الدينيَّةَ: أدَّاها. وأقامَ حكومةً: أسّسها، أنشأها "إقامة معارضة واسعة القاعدة.

أقام فلانًا: أزاله من مكانه، ضدّ أقعدهُ، وأقام الدُّنيا وأقعَدها: أحدث ضجَّة كبيرة، أثار الاهتمامَ، شغل النّاسَ.

أقام عليه الدعوى: قدَّم شكوى ضدَّه أمام المحكمة.

أقام له وزنًا: أولاه أهميّة أو أخذه بعين الاعتبار، وفّاه حقَّه: **{فَلاَ نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْنًا}[الكهف:١٠٥]**.

أقام في المكان: اتَّخذه مُقامًا، استقرّ فيه، استوطنه: **{يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ}[النحل:٨٠]**.

أقام بين أَظْهرُهم: بينهم، في وسطهم- إقامة مؤقَّتة: فترة إقامة قصيرة- أقام رَدَحًا من الزَّمن- طائر مقيم: غير مهاجر.

أقام للصَّلاة: نادى بها[(١)].

ومن مجموع ما سبق يتلخص لنا في الإقامة ثلاثة معان:

١- الإيجاد والإنشاء والتأسيس.

٢- الاستقرار والدوام.

٣- الاعتدال والاتزان والتمام.

ويلاحظ أن كل مواضع الحض على الصلاة والإشادة بأهلها جاءت في القرآن على صيغة" أقام" بتصريفاتها المختلفة: (أقام-يقيم - أقاموا- يقيموا — أقمن- أقم-أقمت -أقيموا-أقمتم— مقيم-مقيمين —إقامة) فشملت كل وجوه اشتقاقات الكلمة ومختلف تصريفاتها، من اسم وفعل ومصدر، ماض ومضارع وأمر، وتذكير وتأنيث، ومفرد وجمع؛ ليؤكد على حتمية وجوبها على كل المخاطبين مهما كانت الظروف واختلفت الأحوال، ولم تأت بصيغة "قام" والتي هي من القيام ضد القعود، والفرق بينهما في المبنى زيادة الهمزة، أما في المعنى فكل ما سبق، ولا يعدل إلى زيادة في المبنى إلا لزيادة في المعنى؛ ليفيد أن المطلوب هو إقامة الصلاة، لا مجرد القيام لها، وإلا فأهل النفاق قد أثبت الله لهم صلاة وقياما فقال: **{وَإِذَا قَامُواْ إِلَى الصَّلاَةِ قَامُواْ كُسَالَى}[النساء:١٤٢]**، وعليه فهناك فرق بين صيغة "أقام" و"قام"، فالثانية دون الأولى في المعنى والمبنى، وفي ثلاثة مواضع وردت "قام" وكلها لا تحمل معنى الإشادة إطلاقا:

---

(١) معجم اللغة العربية المعاصرة (٣/ ١٨٧٥)

الأول: في سياق الحديث عن صلاة المنافقين، والثاني: في سياق القصر في السفر، والثالث: في شرعية الوضوء، وكلها تحمل دلالات الدونية في الرتبة؛ لاعتبارات مخصوصة.

أما الأول فهو قوله: **{وَإِذَا قَامُواْ إِلَى الصَّلاَةِ قَامُواْ كُسَالَى}[النساء:١٤٢]** فلما لحقها من خلل من قبل النفاق.

وأما الثاني فقوله: **{وَإِذَا كُنتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ الصَّلاَةَ فَلْتَقُمْ طَآئِفَةٌ مِّنْهُم مَّعَكَ}[النساء:١٠٢]** فلما طرأ عليها من النقص بسبب قصرها بعلة السفر، أو الخوف، وما سميت بصلاة القصر إلا لقصرها عن درجة التمام[(١)]. ولذلك بعد زوال العذر أمر بإقامتها على وجهها فجاء باللفظ المعتاد "أقام" فقال: **{فَإِذَا اطْمَأْنَنتُمْ فَأَقِيمُواْ الصَّلاَةَ إِنَّ الصَّلاَةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَّوْقُوتًا}[النساء:١٠٣]**. وقبلها قال "فلتقم"، أما في حق نبيه ﷺ فقال: "أقمت"، ففرق بين الاستعمالين؛ وذلك باعتباره ﷺ سيأتي بها على تمامها -أربع ركعات- على جهة الكمال، بخلاف أصحابه- فجبرا لما طرأ لصلاتهم من خروج عن الوجه المعتاد- فكل طائفة منهم ستدرك معه ركعتين، كإحدى صور صلاة الخوف. أو لتفويتها معه ﷺ صلاة الجماعة كاملة حيث ستصلي كل طائفة معه ركعتين ثم تذهب لوجهتها وتكمل مع نفسها، لتأتي الأخرى فتصلى معه ما بقي من الصلاة ثم تقضي ما فاتها في صورة أخرى.

وأما الثالث فهو قوله: **{يا أيها الَّذِينَ آمَنُواْ إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلاةِ فاغْسِلُواْ وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ} [المائدة:٦]** فلما ينقصها من كمال الطهارة؛ بدليل قوله: "فاغسلوا وجوهكم"- فالآية جاءت في مورد الأمر للتهيؤ للصلاة بالقيام بما هو مقدمة لها، وشرط لصحتها، من النية والإرادة أو القيام من النوم، أو القيام إليها ولكن في حالة الحدث، بمعنى: إذا قمتم إلى الصلاة وانتم محدثون[(٢)]، وكلها اعتبارات خارجية عن ماهية الصلاة وجوهرها؛ فعبر لمطلوبيتها بما يناسبها؛ بحسب مقتضى السياق.

هذا" وفي كل ما سبق قد جاءت النصوص بمراعاة معانيها ودلائلها في الصلاة، في سياقات مختلفة من القرآن، كما سنوضح ذلك في مبحثنا التالي:

---

(١) قصَرَ يَقصُر، ضدّ مدّه، قصَر الصَّلاةَ: صَلَّى ذات الأَرْبَع الرَّكَعَات رَكْعتين فقط انظر معجم اللغة العربية المعاصرة (٣/ ١٨٢١)

(٢) قال الماتريدي :(هو قيام دون قيام) انظر تفسير الماتريدي -تأويلات أهل السنة (٦/ ٥٧٠)، التفسير المنير للزحيلي (٦/ ١٠٠)، إعراب القرآن وبيانه (٢/ ٤٢٢)

المبحث الأول: معاني الصلاة ومدلولاتها وفيه ثمانية مطالب:

المطلب الأول/أقيموا ودلالة التشبيه فيه :

سبق وذكرنا أن من معاني الصلاة "الصلو" والذي هو وسط الظهر ليلتقي هنا مع معنى الإقامة، والتي هي في وضعها اللغوي تدل- من جملة ما تدل عليه- على الاعتدال والانتصاب: **{فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَنْ يَنقَضَّ فَأَقَامَهُ}[الكهف:٧٧]**. وكلا المعنيين يلتقيان مع قوله ﷺ: (رَأْسُ الأَمْرِ: الْإِسْلَامُ، وَعَمُودُهُ: الصَّلَاةُ)[(١)]، وذلك باعتبار الصلاة عمود الميزان وميزان الاعتدال؛ باستقامتها استقامة أمور الناس، وباعوجاجها اعوجاجهم، وفي هذا النص قد جعلت الصلاة قسيمة الإسلام، لا قسما من أقسامه. فالحديث شبه الإسلام بالرأس، والصلاة بالعمود، مع أن الصلاة جزء من الإسلام؛ ولكن لبيان مكانتها من الدين وعظيم أثرها في صلاح حال المسلم، عدها بمنزلة العمود الذي يحمل الرأس وما حوى، ولا قوام ولا ثبوت للإسلام بدونها: (أَوَّلُ مَا تَفْقِدُونَ مِنْ دِينِكُمُ الْخُشُوعُ، وَآخِرُ مَا تَفْقِدُونَ مِنْ دِينِكُمُ الصَّلَاةُ، وَلَتُنْقَضَنَّ عُرَى الْإِسْلَامِ عُرْوَةً عُرْوَةً)[(٢)]. وحتى تكون الصلاة مقياسا لغيرها فقد جعلها الله في نفسها غاية في الاستقامة والانتظام في مظهرها ومخبرها، فلا يبلغ الشيء أن يكون مقياسا لغيره حتى يبلغ في ذاته غاية درجات الكمال، وإلا أظهر في الموزونات من العوج بقدر ما فيه من الخلل.

ومن أول نظرة في هيئة الصلاة وصفتها تنكشف هذه الحقيقة فضلا عن مضامينها وأسرارها؛ حيث إن من أعز مطالبها: **{اهدِنَا الصِّرَاطَ المُستَقِيم}[الفاتحة:٦]**، فمن خلال تتبع أفعال الصلاة يلاحظ أنه يغلب على أكثرها دقة الاستقامة سواءٌ أكان في القيام أم الركوع أم السجود أم الجلوس وفي كثير من هيئاتها حتى يتخيل للرائي أنه أمام تشكيلات هندسية غاية في الدقة والانتظام، من استقامةٍ حال القيام، واستواءٍ حال الركوع بحيث يكون الظهر والرأس في خط متواز مع الأرض، واستقامة الرجلين واليدين، دون ثني أحدهما من الركبة أو المرفق، بما يشبه المثلث قائم الزاوية من الجذع، وعند الرفع لابد من الاعتدال لكل مفصل وعضو، ورفع اليدين حتى تحاذيان الأذنين، مع استقامة وإفراد أصابع اليدين وتوجه باطن الكف للقبلة، وفي السجود نصب القدمين على الأصابع مع تجافي اليدين عن الإبطين وعن الأرض على هيئة مستطيل الشكل مع توجيه أصابع الكفين جهة القبلة، فإذا جلس في آخر صلاته جلس متربعا أو منتصبا. وللتدليل على ذلك نذكر هذا الحديث: (كَانَ إِذَا قَامَ إِلَى الصَّلَاةِ اعْتَدَلَ قَائِمًا، وَرَفَعَ يَدَيْهِ حَتَّى حَاذَى بِهِمَا مَنْكِبَيْهِ، فَإِذَا أَرَادَ أَنْ يَرْكَعَ رَفَعَ يَدَيْهِ حَتَّى يُحَاذِيَ بِهِمَا مَنْكِبَيْهِ، ثُمَّ قَالَ: " اللهُ أَكْبَرُ " فَرَكَعَ ثُمَّ اعْتَدَلَ فَلَمْ يَصُبَّ رَأْسَهُ، وَلَمْ يُقْنِعْهُ وَوَضَعَ يَدَيْهِ عَلَى رُكْبَتَيْهِ، ثُمَّ قَالَ: " سَمِعَ اللهُ لِمَنْ

---

(١) صحيح الجامع الصغير وزيادته (٢/ ٩١٣(

(٢) المستدرك على الصحيحين للحاكم (٤/ ٥١٦) ووافقه الذهبي، انظر: المسند (٥/٢٥١)

حَمِدَهُ "، ثُمَّ رَفَعَ وَاعْتَدَلَ حَتَّى رَجَعَ كُلُّ عَظْمٍ فِي مَوْضِعِهِ مُعْتَدِلًا، ثُمَّ هَوَى سَاجِدًا وَقَالَ: " اللهُ أَكْبَرُ "، ثُمَّ جَافَى وَفَتَحَ عَضُدَيْهِ عَنْ بَطْنِهِ، وَفَتَحَ أَصَابِعَ رِجْلَيْهِ، ثُمَّ ثَنَى رِجْلَهُ الْيُسْرَى وَقَعَدَ عَلَيْهَا، وَاعْتَدَلَ حَتَّى رَجَعَ كُلُّ عَظْمٍ فِي مَوْضِعِهِ، ثُمَّ هَوَى سَاجِدًا وَقَالَ: " اللهُ أَكْبَرُ "، ثُمَّ ثَنَى رِجْلَهُ وَقَعَدَ عَلَيْهَا حَتَّى يَرْجِعَ كُلُّ عُضْوٍ إِلَى مَوْضِعِهِ، ثُمَّ نَهَضَ فَصَنَعَ فِي الرَّكْعَةِ الثَّانِيَةِ مِثْلَ ذَلِكَ، حَتَّى إِذَا قَامَ مِنَ السَّجْدَتَيْنِ كَبَّرَ وَرَفَعَ يَدَيْهِ حَتَّى يُحَاذِيَ بِهِمَا مَنْكِبَيْهِ كَمَا صَنَعَ حِينَ افْتَتَحَ الصَّلَاةَ، ثُمَّ صَنَعَ كَذَلِكَ حَتَّى إِذَا كَانَتِ الرَّكْعَةُ الَّتِي تَنْقَضِي فِيهَا الصَّلَاةُ أَخَّرَ رِجْلَهُ الْيُسْرَى، وَقَعَدَ عَلَى شِقِّهِ مُتَوَرِّكًا، ثُمَّ سَلَّمَ)[1].

وهكذا من خلال هذه الصورة المقتضبة للصلاة نلحظ أن الصلاة عبادة يشترك فيها الإنسان بكل كيانه، وأركانه، قلبا وفكرا وعقلا، جلدا وشحما ولحما وعظما، في انتظام محكم وتناسق تام، في صورة جمالية توافقت فيها معالم الخلقة والفطرة، مع دلالات الأمر ومراميه، ودقة ألفاظه ومعانيه: (خَشَعَ سَمْعِي وَبَصَرِي وَمُخِّي وَعَظْمِي وَعَصَبِي وَمَا اسْتَقَلَّتْ بِهِ قدمي لله رب العالمين)[2].

فعند التأمل في أول الخلقة نجد أن أول ما خلق الله من الإنسان هو شريط العمود الفقري، فقد أوضح علم الأجنة الحديث أن عجب الذنب هو الشريط الأولي الذي يتكون إثر ظهوره الجنين بكافة طبقاته، وخاصة الجهاز العصبي، ثم يندثر هذا الشريط ولا يبقى منه إلا أثره، فيما يسمى: عظم العصعص (عجب الذنب)[3]، فناسب وصف الصلاة بالعمود، ليأتي الأمر في القرآن بعد ذلك بصيغة "أقيموا"؛ وبقوام هذا العمود قوام الإنسان، ناهيك عما لهذا العمود من مكانة في ربط الرأس بسائر الأعضاء، وتبليغ ما يصدر منه وإليه من إشارات وإيماءات، تحكم الجسد كله، بمختلف تصرفاته وانفعالاته وحركاته وسكناته، فإذا ما أصيب بخلل كان مصيره الإقعاد والشلل، وتوقفت معه كل أجزاء الجسم عن الحركة والعمل، وصار جثة هامدة، عديمة الحركة والتأثير، كما أن العمود هو رمز القوة وحجر الزاوية في التشييد والبناء، وبه يأخذ الشيء شكله وقوامه. ليقابل دور الصلاة في حياة الناس فصلاتهم هي قوام هذه الحياة، وفيها سر سعادتهم وبها انتظام معايشهم وهذا كله مشمول بقوله: (وعموده الصلاة)، وحق العمود أن ينصب ويقام ليعلا عليه ويشيد البنيان؛ فناسبه: }**وَأَقِيمُواْ الصَّلاَةَ**{.

كما أن فيها من مخزون الطاقة الايجابية ما يكفي لتعديل اعوجاج العقول، ويفي بتصويب الفهوم، وذلك باستجماع كل قوى التركيز في الدماغ ساعات الصلاة، ففي تأمل المصلي وتفهمه لما يفعل ويقول، وتصويب تركيزه في نقطة واحدة وعدم التشتت بالفكر يمينا أو شمالا: ما يكفي لاستنارة العقل

---

(١) صحيح : إرواء الغليل في تخريج أحاديث منار السبيل (٢/ ٩٢)

(٢) صحيح انظر التعليقات الحسان على صحيح ابن حبان (٣/ ٣٦٤)، صفة صلاة النبي ﷺ (ص: ١٣٣)

(٣) الإعجاز الطبي في أحاديث الرسول ﷺ عن أحاديث عجب الذنب للدكتور مُحَمَّد علي البار، نقلاً عن موقع: www.nooran.org

وتبصره، وانقداح شرارة التوقد فيه وتوهجه، ولمعان بريق الحكمة منه وتفطنه، واكتساب مهارات وقدرات في التعقل والتركيز مما تطلبه الحياة؛ بما يساعد المرء على تجاوز كثيرا من الإشكالات التي قد تفسد عليه دينه ودنياه: **{وَإِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى الصَّلاَةِ اتَّخَذُوهَا هُزُوًا وَلَعِبًا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لاَّ يَعْقِلُون} [المائدة:٥٨]**، ولو وصلوا العقول بخالقها واستعانوا لذلك بالقرآن والصلاة؛ لاستقامت بوصلة العقول: **{أَفَلاَ تَعْقِلُون. وَاسْتَعِينُواْ بِالصَّبْرِ وَالصَّلاَةِ} [البقرة:٤٥]، {إِنَّا أَنزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُون}[يوسف:٢]**، وما أوتي كثير من الناس إلا من قبل جهلهم وحماقاتهم، واستعجالهم وعدم تعقلهم- وما أكثرهم!- ناهيك عما فيها من طاقة روحية؛ باتصالها بمصدرها، واكتسابها من قبس نوره، وتزودها من نفحات جوده، ما يضع عن كواهل أصحابها من مثقلات الأوزار ، ويفك عن أعناقهم ربقة الذنوب، ويفل عن رقابهم إصر الأغلال، ويخرجهم بها من ظلمات الشهوات والشبهات إلى ناصعات البياض والنور: **{هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ وَمَلاَئِكَتُهُ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ} [الأحزاب:٤٣]**، فغدت الصلاة حصنهم المنيع وملاذهم الآمن، وكانت لأنفسهم الجدول المنساب، والمنبع الرقراق، الذي يمد جوانب حياتهم بفيوضات من الإصلاحات والمعالجات الناجعة، ويغسلهم من مختلف عللهم وأسقامهم الظاهرة والباطنة: (أَرَأَيْتُمْ لَوْ أَنَّ نَهْرًا بِبَابِ أَحَدِكُمْ يَغْتَسِلُ مِنْهُ كُلَّ يَوْمٍ خَمْسَ مَرَّاتٍ، مَا تَقُولُونَ؟ هَلْ يَبْقَى مِنْ دَرَنِهِ؟ " قَالُوا: لَا يَبْقَى مِنْ دَرَنِه شَيْءٌ، قَالَ: ذَاكَ مَثَلُ الصَّلَوَاتِ الْخَمْسِ، يَمْحُو اللهُ بِهَا الْخَطَايَا)[(١)] .فتنجبر الكسور، وتلتئم الصدوع، وتنقشع الغيوم، وتزول الآلام، وتسكن الجوانح في الضلوع من حيرة الأوهام واضطرابات الشكوك والظنون، وتطمئن القلوب من خفقات الخطوب، وتقوى العزائم من وهنات الفتن التي عركت الأكباد، وضاقت بها الصدور، وينشطوا من عقال أكدار الزمن وتقلبات الأيام: (أَرِحْنَا بِهَا يَا بِلَالُ)[(٢)] . وهكذا فالصلاة قوام للمظهر والمخبر، واستقامة للعقل والنفس والروح.

المطلب الثاني/ سر القبول وخيط النجاة:

الإخلاص هو الخيط الرفيع والختم الخفي الذي يميز الصلاة عن سائر النشاطات الفكرية، والليقات البدنية، فكل صلاة لا تحمل هذا الخيط السري اللطيف ففي أصالتها زيف، وفي مفعولها دخن، والقلب في نفاقها على وجل: **{قُلْ إِنَّ صَلاَتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلّهِ رَبِّ الْعَالَمِين لاَ شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَاْ أَوَّلُ الْمُسْلِمِين} [الأنعام١٦٢ :١٦٣]**، والصلاة كما هي حركة عضوية هي أيضا خفقات قلبية وترويضات عقليه ونفسية وفسيولوجية، وبالإخلاص تأخذ طابعها

---

(١) أخرجه البخاري (١/١٣٣)، ومسلم (٢/١٣١/١٣٢)

(٢) أخرجه أبو داوود كتاب الادب (٤٩٨٦)

التعبدي، فيجد العبد سلوته بين يدي ربه وإن طال به المقام: (كَانَ يَقُومُ مِنَ اللَّيْلِ حَتَّى تَتَفَطَّرَ قَدَمَاهُ)[1].

ومع اختلال هذه البوصلة وفقد هذا المعني وغياب التربية عليه أخذت العبادات صفة العادات فساءت الأحوال، وتغلبت الشهوات على نفوس كثير من الناس فمالوا عن جادة الطريق، وخطفت أبصارهم زخارف الدنيا فالتهت بها عن إدراك أسرار آياته الجلية، فضلا عن ملاحظة ألطاف حكمته الخفية، واستقوت عليهم الشياطين فصرفتهم عن صراطه المستقيم، وحجبتهم الشبهات والأهواء عن هدي دينهم القويم: **{فَخَلَفَ مِن بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلاَةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا}[مريم:٥٩]**، فبرزت في الواقع عينات وفئام من البشر لم تقف عند حد قطع الصلاة، حتى جعلت منها وسيلة للابتزاز، ومصدرا للتكسب والارتزاق، والتسلق بالدين لبلوغ رتبة في الدنيا؛ فتصيب حطاما من رعاعها، فجنت على نفسها وعلى دينها وعلى الناس باسم الدين ما لم يجنه قطاع الصلاة، وأجرمت في حق نفسها جرما فاق جرم أهل الفسق والعصيان: (يا أَبَا هُرَيْرَةَ أُولَئِكَ الثَّلَاثَةُ أَوَّلُ خَلْقِ اللَّهِ تُسَعَّرُ بِهِمُ النَّارُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ..)[2] -يعني :المجاهد، والمنفق، والقارئ.

أضفوا على أنفسهم من القداسة ما سلبوه من قدسية الصلاة، وجلبوا لأنفسهم من الهالة والعظمة بقدر ما أماتوا في قلوبهم من جلال الله وهيبته، فتجدهم في صورة أفراد أو جماعات، طرق أو كيانات، تزعم احتكار أسرار المعرفة وطرق الوصول إلى الله؛ لتستميل البسطاء من الناس، وتستدر بها أموالهم: **{يا أيها الَّذِينَ آمَنُواْ إِنَّ كَثِيرًا مِّنَ الأَحْبَارِ وَالرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللّهِ}[التوبة:٣٤]**، استحوذ عليهم الشيطان كما استحوذ على الذين من قبلهم، ولم يفلتهم حتى أوقعهم في شراك الشرك الأكبر فزاغ العابد والمعبود: **{اتَّخَذُواْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُواْ إِلاَّ لِيَعْبُدُواْ إِلَهًا وَاحِدًا}[التوبة:٣١]**، فغدت قطاعات من البشر هي أشبه بقطيع الخرفان تعمل فيها عصى سيدها أقوى مما يعمل فيها كلمات ربها، وتتحرك بحركة سادتها وتخضع لزعمائها أشد مما تنقاد لنبيها وتقتدي برسولها، هي أشبه بالغثاء الذي وصفها به رسولها في أبلغ وصف: (وَلَكِنَّكُمْ غُثَاءٌ كَغُثَاءِ السَّيْلِ)[3]، لا قرار له إلا حيث يرسو به السيل، ولا وجهة له إلا حيث تتقاذفه الأمواج، فسقطت من عين الله: **{وَمَن يُهِنِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِن مُّكْرِمٍ} [الحج:١٨]**. وهكذا من سلم زمام أمره لغير الله انحرفت بهم بوصلة السير، فلم ترسو بهم سفينة الإغواء إلا على شواطئ الشرك ومحاريب

---

(١) البخاري (١٣٥/٦)

(٢) المستدرك على الصحيحين للحاكم (١/ ٥٧٩)

(٣) سنن أبي داوود (١١١/٤) وصححه الألباني

الضلال: **{سُبْحَانَهُ عمَّا يُشْرِكُون}**.

المطلب الثالث/ طهارة ونقاء:

لما كانت الصلاة صلة بين العبد وربه، ومناجاة تظهر فيها آثار تجليات الرب في قلوب العارفين، شرع- قبل الدخول فيها- التطهر والنقاء، طهارة في المظهر ونقاء في المخبر، فالعلاقة بين الصلاة والطهارة دائمة ومتلازمة ظاهرا وباطنا: (لَا تُقْبَلُ صَلَاةٌ بِغَيْرِ طُهُورٍ)[1]، فإنه لا يفد على الله إلا طاهر، أما المتلطخ بالأوساخ الظاهرة والباطنة فليس أهلا للقرب منه، ولا خليقا بمناجاته، ولا محلا لتجلياته، كما أنه- تعالى- طيب لا يقبل إلا طيبا، فأمر بتخليص القلب من الشرك والرياء، وشرع للمصلي غسل بدنه وأعضائه بالماء، وجعل ذلك مطهرا للنفس من الرجس والذنب، مخلصا للقلب من الران والحجب: **{يا أيها الَّذِينَ آمَنُواْ إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلاةِ فاغْسِلُواْ وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ .. يُرِيدُ لِيُطَهَّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُون}[المائدة:٦]**. وأمر بأخذ الزينة والتطيب عند كل لقاء ونهى عن مقاربته لمن في عرفه نتن أو أذى فقال: (مَنْ أَكَلَ مِنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ الْمُنْتِنَةِ، فَلَا يَقْرَبَنَّ مَسْجِدَنَا، فَإِنَّ الْمَلَائِكَةَ تَأَذَّى، مِمَّا يَتَأَذَّى مِنْهُ الْإِنْسُ)[2].

ولم يقف الأمر في وجوب الطهارة لأجل الصلاة حتى أصبح عادة لمن دق فهمه واستنار بصره وبصيرته، وغدا سمة من سمات المؤمنين: (لَا يُحَافِظُ عَلَى الْوُضُوءِ إِلَّا مُؤْمِنٌ)[3]، فاعتادته نفوسهم في كل ساعاتهم وأوقاتهم فقابل الله الحب بالحب: **{يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُواْ وَاللّهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِين}[التوبة:١٠٨]**. (يَا بِلَالُ بِمَ سَبَقْتَنِي إِلَى الْجَنَّةِ؟ إِنِّي دَخَلْتُ الْبَارِحَةَ الْجَنَّةَ فَسَمِعْتُ خَشْخَشَتَكَ أَمَامِي» . فَقَالَ بِلَالٌ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، مَا أَذَّنْتُ قَطُّ إِلَّا صَلَّيْتُ رَكْعَتَيْنِ، وَمَا أَصَابَنِي حَدَثٌ قَطُّ إِلَّا تَوَضَّأْتُ عِنْدَهُ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: بِهَذَا)[4]، وطهارة المظهر دليل على نقاء المخبر فكان مقدما في الذكر رغم تأخره في الرتبة والقدر: **{وَثِيَابَكَ فَطَهِّر وَالرُّجْزَ فَاهْجُر} [المدثر: ٤: ٥]**.

ويأتي شرط طهارة الموطن كحلقة أخيرة بها تكتمل دورة الطهارة في حياة المسلم، دورة شملت الظاهر والباطن ففي الظاهر مبعثها بدنه، وملبسه، وموطنه ومستقرها محيطه ومجتمعه: (إِنَّ اللَّهَ طَيِّبٌ يُحِبُّ الطِّيبَ نَظِيفٌ يُحِبُّ النَّظَافَةَ كَرِيمٌ يُحِبُّ الْكَرَمَ جَوَادٌ يُحِبُّ الْجُودَ فَنَظِّفُوا أَفْنِيَتَكُمْ وَلَا تشبَّهوا

---

(١) صحيح مسلم (١/ ٢٠٤)

(٢) صحيح مسلم (١/ ٣٩٤)

(٣) المستدرك على الصحيحين للحاكم ووافقه الذهبي (١/ ٢٢١)

(٤) المستدرك على الصحيحين للحاكم (١/ ٤٥٧)

باليهود)[1]، إنه حض في سياق المقارنة في البيئات، والتنافس بين الأمم، فيجب أن تكون بيئة المسلم هي البيئة الأولى، ومضرب المثل للأمم الاخرى، وهذا ما نفتقده اليوم في مجتمعاتنا للأسف الشديد، سواء في محيطنا الفردي أو الأسري أو المجتمعي، بل سبقت كثير من دول الشرق والغرب شعوبنا المسلمة بمراحل شاسعة، غير مكترثين بأمر رسول الله بالنظافة، ولا عابئين بتحذيره عن مشابهة اليهود في القذر؛ فضلا أن نكون دونهم، وقبله غير منتفعين من دلالات حزمة النصوص المطالبة بها والتي تكتنف الصلاة حالا ومكانا وإنسانا، مما يوحي بخلل في الصلاة أو ضعف في الشعور، فتأخر بنا الحال عن الفهم عن الله، وإدراك أسرار أحكامه ومقاصد شرعه ودينه بمفهومه الواسع.

وأما في الباطن فسمو في مبادئ المسلم ونقاء سيرته: **{وَالَّذِينَ هُمْ لأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُون. وَالَّذِينَ هُم بِشَهَادَاتِهِمْ قَائِمُون. وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلاَتِهِمْ يُحَافِظُون. أُوْلَئِكَ فِي جَنَّاتٍ مُّكْرَمُون} [المعارج٣٢/٣٥.]**، ومبدؤها خلوص القلب وصفاء سريرته: **{وَمَا أُمِرُوا إِلاَّ لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاء وَيُقِيمُوا الصَّلاَةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَلِكَ دِينُ الْقَيِّمَة} [البينة:٥]**،

المطلب الرابع/ تعقل وحضور:

إن حضور القلب، وإدراك المصلي لما يفعل ويقول، وتفهم العقل لما ترمي إليه الصلاة من حكم ومقاصد؛ لهو من أهم ركائز الصلاة وأعظم دواعي قبولها، دلت على ذلك نصوص كثيرة من القرآن والسنة: **{قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُون.الَّذِينَ هُمْ فِي صَلاَتِهِمْ خَاشِعُون} [المؤمنون:١-٢] {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تَقْرَبُواْ الصَّلاَةَ وَأَنتُمْ سُكَارَى حَتَّىَ تَعْلَمُواْ مَا تَقُولُونَ} [النساء:٤٣]**.

(إِنَّ الرَّجُلَ لَيُصَلِّي، وَلَعَلَّهُ أَنْ لَا يَكُونَ لَهُ مِنْ صَلَاتِهِ إِلَّا عُشْرُهَا، وَتُسْعُهَا، أَوْ ثُمُنُهَا، أَوْ سُبُعُهَا)[2]، وذلك بقدر ما كان فيها من تفهم وتعقل، وحضور قلب وتفكر، فلا يكتب للرجل من صلاته إلا ما عقل منها[3]، (والله لا يقبل دعاء من قلب غافل لاه)[4]. فبقدر حضور العبد في صلاته وخشوعه وخضوعه فيها يكون حضور الله معه بالعون والتسديد، فالله مع العبد بقدر ما يكون معه في صلاته، فإن زاحمه غيره فيها أوكله إليه بقدره، ومن أوكله إلى شيء أوكله إلى ذل وهوان، وقلة وضياع، فليستكثر العبد من ذلك أو يقل! فإنْ أكثر العبد فالله أجل وأكثر، ومن تقرب إليه ذراعا تقرب إليه باعا، وبدون هذا تكون الصلاة كتلة خامدة، وجثة هامدة لا حركة فيها ولا حياة، ولا ترقى فوق

---

(١) مشكاة المصابيح (٢/ ١٢٧٢) صحيح

(٢) مسند احمد ط الرسالة (٣١/ ١٧١) صح عن سفيان

(٣) رواه أبو نعيم في الحلية (٦١/٧) بسند صحيح انظر سلسلة الأحاديث الضعيفة(٨٢/٢)

(٤) صححه الألباني في تحقيق إزالة الدهش والوله (ص: ١٨٠)

صاحبها شبرا، إن لم يكن صاحبها داخلا تحت طائلة التهديد والوعيد في قوله تعالى: **{فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّين}[الماعون:٤]**.

هذا "ولا يزال الشارع بالتعقل حتى نهى عن كل ما يشوش على العقل هدوءه، ويعكر على القلب حضوره، سواء ما كان منها من المصلي نفسه أو من غيره: (لا صلاة بحضرة طعام، ولا وهو يدافعه الأخبثان)[١]. (إِذَا حَضَرَ الْعَشَاءُ، وَأُقِيمَتِ الصَّلَاةُ، فَابْدَءُوا بِالْعَشَاءِ)[٢]. فإذا كان خاطر الطعام يؤثر في صلاة العبد وهو مما أباحه الله له من الطيبات، فما بالك بغيره من الخواطر؟!

كما أنه نهى من هو خارج الصلاة أن يحول بين المصلي وبين خلوته بربه، فحرم اعتراضه في صلاته، والمرور بين يديه: (لو يعلم المار بين يدي المصلي ماذا عليه، لكان أن يقف أربعين خيرًا له من أن يمر بين يديه)[٣]. ومثله رفع الصوت بالقراءة بالقدر الذي يشغل المصلي عن صلاته: (لا يجهر بعضكم على بعض في القراءة)[٤].

وأمر باتخاذ سترة تحول بينه وبين من يمر بين يديه، وأمر بالاقتراب منها؛ ليحفظ المرء صلاته مما قد يقطع عليه خاطره: (يَقْطَعُ الصَّلَاةَ: الْمَرْأَةُ وَالْحِمَارُ وَالْكَلْبُ، وَيَقِي ذَلِكَ مِثْلُ مُؤْخِرَةِ الرَّحْلِ)[٥]. والقطع هنا هو قطع معنوي، وليس في هذا انتقاص لقدر المرأة كما يريد البعض المشاغبة بفهمه المعوج، مستغلا قول عائشة ﵂، بل هو على النقيض من ذلك، ففيه إشارة لمكانة المرأة وقوة تأثيرها على الرجال؛ لقوة انجذاب القلب للمرأة، وسرعة التفاتة الخاطر لها، وذلك لما جبل عليه الناس من حب النساء وشدة الميل إليهن: **{زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاء}[آل عمران:١٤]**. وهذا الخاطر هو الباعث للقول بقطع صلاة الرجل، وهو ما تفطن له البخاري في صحيحة حيث قال: **(وَإِنَّمَا هَذَا إِذَا اشْتَغَلَ بِهِ فَأَمَّا إِذَا لَمْ يَشْتَغِلْ فَقَدْ قَالَ زَيْدُ بْنُ ثَابِتٍ: «مَا بَالَيْتُ إِنَّ الرَّجُلَ لاَ يَقْطَعُ صَلاَةَ الرَّجُلِ)**[٦]. وعائشة إنما أنكرت أن يكون القطع لذات المرأة، مما يفهم من الاقتران بينها وبين الكلب والسنور؛ ولذلك كانت حجتها أن رسول الله كان يصلي وهي معترضة بين يديه، فكان التوجيه بأن القطع هو قطع الخاطر في حق الأجنبية جمعا بين النصوص، أما من سواها فقد قال رسولنا الكريم:

---

(١) مسلم (١/٣٩٣)

(٢) صحيح مسلم (١/ ٣٩٢)

(٣) البخاري (١/١٠٨)

(٤) صحيح أبي داوود(٥/٧٧) وصححه الألباني

(٥) صحيح مسلم (١/ ٣٦٥)

(٦) صحيح البخاري (١/ ١٠٨)

(وحبب إلي من دنياكم النساء)[1]، إلا أن هذا الحب موضعه في غير الصلاة، أما هي – أي الصلاة- فقرة عين المؤمن: (وجعلت قرة عيني في الصلاة)[2]، فقد خلص فيها القلب كله لله، فلا يليق بعبد أن يصرف قلبه فيها لأي محبوب سواه.

ولم يقف الأمر عند حد المؤثرات الشكلية والعوارض الظاهرة، حتى تجاوز ذلك للعوارض النفسية والالتفاتات القلبية، وهي الأخطر أثرا والأوسع نطاقا، وإليك حديث ينبئك عن معالجة المؤمن لصلاته، وحرصه أن لا يصبها عارض: فقد جعلت عائشة ﵂ على أحد جدران غرفتها ستارة فيها صور، فجعلت هذه الصور تَرِدُ على خاطره ﷺ في صلاته، فوجد في نفسه فأقبل عليها وقال: (أَمِيطِي عَنِّي، فَإِنَّهُ لاَ تَزَالُ تَصَاوِيرُهُ تَعْرِضُ لِي فِي صَلاَتِي)[3]، فأزالته ولم يكن ذلك تشددا منه ﷺ في مظاهر شكلية، بقدر ما هو يكشف لنا جانبا مما لروحه في صلاته ﷺ من سلوى يعز عليه أن يصرفها أو يعكر صفوها عارض من العوارض، صغيرا كان أو كبيرا، ثم لك من بعد ذلك أن تتساءل كم عوارض وكم تصاوير حسية ومعنوية قد عرضت علينا صلاتنا، فلم نزلها ولم نحدث لها تغييرا ؟!.

وكذلك لم تغفل الصلاة معركة الإنسان الحقيقية مع عدوه الأول وخصمه اللدود، مع الشيطان الرجيم، فهو حاضر وبقوة في هذه العبادة، وبصورة أكثر استبسالا، وأشد إصرارا منه على غواية الإنسان في غيرها؛ لما يرى فيها من عظيم الأجر وكبير الأثر على صاحبها في حاله ومآله: **{إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاء فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ اللّهِ وَعَنِ الصَّلاَةِ فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُون}[المائدة: ٩١]**. وقد، جمع أمره واستنفر جنده لهذه المهمة، حتى لا ينجو منه إنسان بصلاة، أو يكاد يصفو للعبد منها شيئا، حتى رسول الله لم تسلم صلاته من جلبته وصخبه، إلا أن الله أمكنه منه: (إِنَّ الشَّيْطَانَ عَرَضَ لِي فَشَدَّ عَلَيَّ لِيَقْطَعَ الصَّلاَةَ عَلَيَّ، فَأَمْكَنَنِي اللَّهُ مِنْهُ)[4]. ثم إن وأول حضور له فيها عند لحظة تحرك الخاطر والإرادة نحوها، ولا يزال يحوم حوله حتى يخرجه منها أو يخرج منها: (يَعْقِدُ الشَّيْطَانُ عَلَى قَافِيَةِ رَأْسِ أَحَدِكُمْ إِذَا هُوَ نَامَ ثَلاَثَ عُقَدٍ، يَضْرِبُ كُلَّ عُقْدَةٍ مَكَانَهَا: عَلَيْكَ لَيْلٌ طَوِيلٌ فَارْقُدْ، فَإِنِ اسْتَيْقَظَ فَذَكَرَ اللَّهَ انْحَلَّتْ عُقْدَةٌ، فَإِنْ تَوَضَّأَ انْحَلَّتْ عُقْدَةٌ، فَإِنْ صَلَّى انْحَلَّتْ عُقَدُهُ كُلُّهَا، فَأَصْبَحَ نَشِيطًا طَيِّبَ النَّفْسِ، وَإِلَّا أَصْبَحَ خَبِيثَ النَّفْسِ كَسْلاَنَ)[5].

---

(١) صحيح الجامع الصغير وزيادته (١/ ٥٩٩)

(٢) صحيح الجامع الصغير وزيادته (١/ ٥٩٩)

(٣) صحيح البخاري (١/ ٨٤)، (قرام) ستر رقيق من صوف ذو ألوان ونقوش. (أميطي) أزيلي. (تعرض) تلوح

(٤) صحيح البخاري (٢/ ٦٤)

(٥) صحيح مسلم (١/ ٢٩١)، صحيح البخاري (٤/ ١٢٢)

فإذا ما تجاوز العبد هذه المرحلة اعترضه في مدرجة المرحلة التالية بعد دخوله فيها، فيباشره في أول وهلة في صلاته بالوسوسة وتذكيره بكل شيء إلا صلاته، حتى لا يكاد يفقه العبد منها شيئا، ويلبسها عليه، حتى لا يدري العبد كم صلى: (إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ أَدْبَرَ الشَّيْطَانُ لَهُ ضُرَاطٌ، حَتَّى لَا يَسْمَعَ التَّأْذِينَ، فَإِذَا قُضِيَ التَّأْذِينُ أَقْبَلَ حَتَّى إِذَا ثُوِّبَ بِالصَّلَاةِ أَدْبَرَ حَتَّى إِذَا قُضِيَ التَّثْوِيبُ، أَقْبَلَ حَتَّى يَخْطُرَ بَيْنَ الْمَرْءِ وَنَفْسِهِ يَقُولُ لَهُ: اذْكُرْ كَذَا وَاذْكُرْ كَذَا لِمَا لَمْ يَكُنْ يَذْكُرُ مِنْ قَبْلُ حَتَّى يَظَلَّ الرَّجُلُ مَا يَدْرِي كَمْ صَلَّى)[1].

فإن عجز عن صرفه بالكلية عنها، اكتفى باليسير منها: ف(عَنْ عَائِشَةَ، قَالَتْ: سَأَلْتُ النَّبِيَّ ﷺ عَنِ الِالْتِفَاتِ فِي الصَّلَاةِ، فَقَالَ: اخْتِلَاسٌ يَخْتَلِسُهُ الشَّيْطَانُ مِنْ صَلَاةِ الْعَبْدِ)[2]. والاختلاس: ما أخذ بسرعة على حين غفلة من صاحبه[3]. ولا يدع منفذا إلا نفذ للإنسان منه: (إِذَا تَثَاءَبَ أَحَدُكُمْ فِي الصَّلَاةِ، فَلْيَكْظِمْ مَا اسْتَطَاعَ، فَإِنَّ الشَّيْطَانَ يَدْخُلُ)[4].

ولخطر أمر الصلاة وعظم شأنها، انتدب لها شيطانا خريتا، لا عمل له غير إفساد صلاة المصلين، ولاستحضار المعركة بصورتها الحية المجسدة، شرع للمصلي أعمالا، بعضها قد يكون خارجا عن نمط الصلاة المعتاد؛ يدافعه بها، ويسترد بعض ما انتزعه الشيطان، ويصون ما بقي منها، فقد جاء رجل إلى رسول الله فقال: (يَا رَسُولَ اللهِ إِنَّ الشَّيْطَانَ قَدْ حَالَ بَيْنِي وَبَيْنَ صَلَاتِي وَقِرَاءَتِي يَلْبِسُهَا عَلَيَّ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «ذَاكَ شَيْطَانٌ يُقَالُ لَهُ خَنْزَبٌ، فَإِذَا أَحْسَسْتَهُ فَتَعَوَّذْ بِاللهِ مِنْهُ، وَاتْفِلْ عَلَى يَسَارِكَ ثَلَاثًا)[5]. ومع أن التفاتة الوجه ممنوعة في الصلاة إلا أنها أبيحت هنا صيانة للصلاة، ومراغمة للشيطان، مفادها: أردت لفتي عن صلاتي، فكانت التفاتة عليك: **{وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيم}[فصلت:٣٦]**.

فإذا ما غلب على المرء وما شعر إلا وهو على وشك الخروج من صلاته فإن الله لم يرض لعبده أن ينطرح للشيطان، ويضعف أمامه ويستسلم له، بل أمره بشيء يزيد الشيطان إغاظة وترغيما؛ وذلك بجبر صلاته بسجدة، والتي كانت أول أمارة تكريم للإنسان عليه، بل وسببا في طرده من الجنة: (إِذَا شَكَّ أَحَدُكُمْ فِي صَلَاتِهِ، فَلَمْ يَدْرِ كَمْ صَلَّى ثَلَاثًا أَمْ أَرْبَعًا، فَلْيَطْرَحِ الشَّكَّ وَلْيَبْنِ عَلَى مَا اسْتَيْقَنَ، ثُمَّ يَسْجُدُ

---

(١) صحيح البخاري (٢/ ٦٧)

(٢) مسند احمد (٤١/ ٢٦٦) صحيح وقال الارنؤوط على شرط الشيخين

(٣) تفسير غريب ما في الصحيحين البخاري ومسلم (ص: ٥٥٥)، القاموس الفقهي (ص: ١٧٩)

(٤) صحيح مسلم (٤/ ٢٢٩٣)

(٥) صحيح مسلم (٤/ ١٧٢٨)

سَجْدَتَيْنِ قَبْلَ أَنْ يُسَلِّمَ، فَإِنْ كَانَ صَلَّى خَمْسًا شَفَعْنَ لَهُ صَلَاتَهُ، وَإِنْ كَانَ صَلَّى إِتْمَامًا لِأَرْبَعٍ كَانَتَا تَرْغِيمًا لِلشَّيْطَانِ)[1].

وهكذا يفهم المؤمن الدرس ويعي العبرة، فكلما وقع في ذنب، أو أصابه ضعف أو وقع منه قصور في الواجبات هرع للنوافل والطاعات، فأكثر منها من جنس ما قصر فيه منها، فيظل دؤوبا في مقارعة الشيطان بقدر ما هو دؤوب في إغوائه، وقد أخبرنا بنفسه أنه لن يكل ولن يمل، ولن يتوقف عن إغوائه ساعة من ليل أو نهار، يتربص بنا في كل موطن، ويقعد لنا كل مرصد: **{ثُمَّ لآتِيَنَّهُم مِّن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَن شَمَآئِلِهِمْ وَلاَ تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ}[الأعراف:١٧]**، ولا يزال العبد يراغمه ويدافعه بما شرعه له ربه من حيل، فيقابل الإصرار بالإصرار، والتربص والاستدراج بالحيطة والانتباه: **{إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَواْ إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُواْ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ}[الأعراف:٢٠١]**، فلا يأس ولا قنوط، بل يتبع السيئة الحسنة تمحها، حتى آخر نفس في الحياة، والحرب سجال، والعاقبة للتقوى: (إِنَّ إِبْلِيسَ قَالَ لِرَبِّهِ: بِعِزَّتِكَ وَجَلَالِكَ لَا أَبْرَحُ أُغْوِي بَنِي آدَمَ مَا دَامَتِ الْأَرْوَاحُ فِيهِمْ، فَقَالَ لَهُ الله: فَبِعِزَّتِي وَجَلَالِي لَا أَبْرَحُ أَغْفِرُ لَهُمْ مَا اسْتَغْفَرُونِي)[2].

وكل ما سبق من نهي عن حركة وكلام ورفع بصر والتفاتة عن يمين أو شمال، والأمر بمدافعة خواطر القلب وعوارض الأعيان، ومدافعة مشاغل القلب ومراغمة وساوس الشيطان، والحث على استجماع كل القوى الإدراكية وتوجيه كل الحواس والأعضاء، كل ذلك وغيره لأجل أمر عظيم، وخطب جلل، ولغاية رفيعة، وهدف أسمى هو الله، ليخلص له العبد بكليته، ويتوجه إليه بقلبه وقالبه، لا يلوي على شيء، ولا يلتفت لأحد سواه، كأني بحادي الشوق للوالهين معتزلاً: (إِنَّ فِي الصَّلَاةِ لَشُغْلًا)[3].

المطلب الخامس/ استقامة وخشوع:

إنه خشوع في الصلاة يتبعه استقامة على منهج الله وشرعته في الحياة، فالاستقامة على هذا الأساس: هي جوهر الصلاة ومقصدها كما هي شكلها ومظهرها، وهي حظ العبد من صلاته، كما جاء في الحديث القدسي: (**قَسَمْتُ الصَّلَاةَ بَيْنِي وَبَيْنَ عَبْدِي نِصْفَيْنِ، وَلِعَبْدِي مَا سَأَلَ، ..... فَإِذَا قَالَ: {اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ}قَالَ: هَذَا لِعَبْدِي وَلِعَبْدِي مَا سَأَلَ**)[4].

---

(١) صحيح مسلم (١/ ٤٠٠)

(٢) حسن: انظر مسند احمد (١٧/ ٣٤٤(

(٣) صحيح البخاري (٢/ ٦٦)

(٤) صحيح مسلم (١/ ٢٩٦(

والاستقامة في أبسط معانيها هي: انتظام حال الإنسان مع إيمانه ومقاله، في نسق تام واستقامة واحدة: (قُلْ: آمَنْتُ بِاللهِ، ثُمَّ اسْتَقِمْ)[1]. فلا إيمان بلا عمل ولا عمل بلا إيمان، بل: **{آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ}[العصر:٣]**، وذلك بصرف العبد جميع حواسه وكل ما أنعم الله به عليه من نعم ظاهرة وباطنه في كل نفس وحين، إلى ما خلقت لأجله، وكلفها الله به، وهذا يتطلب ثلاثة أمور:

١- تحقيق الولاية التامة لله وحده سبحانه؛ ليتولى الله العبد في كل شؤونه.

٢- الاستعانة برافعة الصلاة؛ لبلوغ الغاية القصوى من الدرجات.

٣- الصبر بملازمة السير ومدافعة العوارض.

وهذه الثلاث المرافقات جاء الأمر بهن في ثلاث آيات متتالية، وتالية لآية الاستقامة التي شاب منها النبي ﷺ، معطوفات على بعضهن بحرف العطف الواو في قوله:

{فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ وَلاَ تَطْغَوْاْ إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِير}[هود:١١٢].

{وَلاَ تَرْكَنُواْ إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُواْ فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ اللّهِ مِنْ أَوْلِيَاء ثُمَّ لاَ تُنصَرُون}[هود:١١٣].

{وَأَقِمِ الصَّلاَةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ اللَّيْلِ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ذَلِكَ ذِكْرَى لِلذَّاكِرِين}[هود:١١٤].

{وَاصْبِرْ فَإِنَّ اللّهَ لاَ يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِين}[هود:١١٥].

فكانت الصلاة هي شوكة ميزان الاستقامة، والمقياس الشاهد على صلاح حال الناس من عدمه، وذلك بما احتوته من جمل من الآداب والصفات المعبرة عن الاستقامة والاعتدال، والتصويب والاتزان ظاهرا وباطنا. ظاهرا بما فيها من هيئة القيام ودقة التوجه، وحسن الانتظام، والأمر بأدائها على جهة الكمال والتمام، في مواعيدها، وفي هيئتها ومظهرها مع كامل الاقتداء وتمام الإئتمام، بإتمام ركوعها وسجودها وتحقيق الاطمئنان، مع موافقة للمجموع ومتابعة للإمام في القيام والتأمين والسلام وسائر الأركان، باتساق واحد وانسجام تام، في موقف الكل من الفرد، وموقف الفرد من الكل، صورة غاية في الدقة والانضباط، ترسمها الصلاة في مظهرها العام دون زيادة أو نقصان: **{وَأَقِيمُواْ الصَّلاَةَ وَآتُواْ الزَّكَاةَ وَارْكَعُواْ مَعَ الرَّاكِعِين}[البقرة:٤٣]**. والحث على استقامة صفوفها وتسويتها وعدم اعوجاجها: (كانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يُسَوِّي صُفُوفَنَا حَتَّى كَأَنَّمَا يُسَوِّي بِهَا الْقِدَاحَ)[2]، وانتصاب القامة دون طأطأة ولا إقناع،

---

(١) صحيح مسلم (١/ ٦٥)

(٢) صحيح مسلم (١/ ٣٢٤)، والقِدْحُ: السَّهْمُ قبل أَن يُنْصَل المحكم والمحيط الأعظم (٢/ ٥٧٠)

واستواء الظهر حال الركوع: (كَانَ إِذَا رَكَعَ سَوَّى ظَهْرَهُ، حَتَّى لَوْ صُبَّ عَلَيْهِ الْمَاءُ لَاسْتَقَرَّ)[1]، واعتدال الصلب عند كل ارتفاع وانخفاض: (لا صلاة لمن لا يقيم صلبه في الركوع والسجود)[2]. قال: يقيم أي: يسوي ويستقيم؛ ليلتقي هذا بقوله في الحديث الذي قبله: كما يسوي القداح، وهما يلتقيان مع الآية الشريفة: (يقيموا الصلاة) وكلها تفيد الاستقامة والاستواء، والذي سبق وبينا الفروق والدلالات في هذه الاستعمالات.

وباطنا بالاستقامة على طريق الهداية، والتجافي عن مناحي الغواية والضلال، وخلوص القلب للحق، ولين الجانب للخلق بقوله: **{وَقُومُواْ لِلّهِ قَانِتِينَ}[البقرة:٢٣٨]**: وقد جاء في بيان معنى القنوت معان عدة: (ساكتين، عابدين، طائعين، خاشعين، غض البصر، طول القيام)[3]. ومع تعدد الأقوال فيها إلا أنه يمكن اعتبار أغلب ما ورد فيها من معان، خرجت مخرج الحث على ترويض النفس على لزوم الأدب، وشهود القلب لجلال الله وعظمته، مع كمال العبودية له وتمام الانكسار، وصدق الإقبال عليه، والارتماء بين يديه سبحانه، بالذل والافتقار، ظاهرا وباطنا، وملازمة نظر العبد بين يديه، وترك الكلام إلا معه ووفق ما شرع: (كُنَّا نَتَكَلَّمُ فِي الصَّلاَةِ يُكَلِّمُ أَحَدُنَا أَخَاهُ فِي حَاجَتِهِ حَتَّى نَزَلَتْ هَذِهِ الآيَةُ: **{حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلاَةِ الوُسْطَى وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ} [البقرة: ٢٣٨]** فَأُمِرْنَا بِالسُّكُوتِ)[4].

ثم إن من كمال الأدب عدم إطالة النظر إلى وجه من تعظمه وتجله؛ هيبة له وخجلا وحياء منه، فجاء الأمر في الصلاة بأدب من جنسه؛ بلزوم النظر إلى موضع السجود، ونهي المصلي عن رفع بصره تلقاء وجهه، أو صوب السماء، أو جهة يمين أو شمال: (مَا بَالُ أَقْوَامٍ يَرْفَعُونَ أَبْصَارَهُمْ إِلَى السَّمَاءِ فِي صَلَاتِهِمْ، لَيَنْتَهُنَّ عَنْ ذَلِكَ أَوْ لَتُخْطَفَنَّ أَبْصَارُهُمْ)[5]. ونهى عن كثرة الحركة المخلة بأدب الوقوف بين يدي ملك الملوك، بل بلغ الأمر عند الشافعية بالاعتداد بثلاث حركات متتاليات في ركن واحد للقول ببطلان الصلاة بها[6]، بل نهى عن الاشتغال بغيرها، وإن دعت إليه الحاجة، فضلا عما هو دون ذلك: (لأنْ يُمسكَ أحدُكم يَدَهُ عَنِ الحَصى -في الصلاة- خيرٌ له من مئةِ ناقةٍ؛ كلُّها سُودُ الحَدَقِ[7]؛ فإن غَلَبَ

---

(١) سنن ابن ماجه (١/ ٢٨٣) وصححه الالباني

(٢) سنن الترمذي (٢/ ٥٢(، صححه الالباني صحيح الجامع الصغير وزيادته (٢/ ١٣٢١(

(٣) انظر القرطبي (٢١٤/٣)

(٤) صحيح البخاري (٦/ ٣٠)، ومسلم (٣٨٣/١) وغيرهما

(٥) البخاري (١٥٠/١) ،مسلم(٢٢١/١)

(٦) الفقه المنهجي على مذهب الإمام الشافعي (١/ ١٦٨)، إعانة الطالبين على حل ألفاظ فتح المعين (١/ ١٤٧)

(٧) الحدق: سواد العين، وكل ما استدار بشيء فقد أحدق به : المحيط في اللغة (١/ ١٦٣)

أحدَكم الشيطانُ فَلْيَمسحْ مَسحةً واحدة)[1].

فإذا كان هذا في حق مسح الحصى مع ما فيه من مصلحة للمصلي ودفع الأذى عنه، أما المشتغل بما هو مذموم شرعا أو مستقبح عقلا، كاستحضار صور النساء الأجنبيات، أو التهاء النفس بالمعازف والملهيات، أو مجاراة النفس في حديثها فيما هو فسوق وعصيان، أو بما فيه ظلم وعدوان، أو سوء ظن وبهتان، أو استرسال الخيال في العشق والهيام، فاستجرار المصلي لكل ذلك بين يديه سبحانه لمن أشد الغفلات وأقبح الجهالات، فالمشتغل بغيره لحظة مناجاته، والملتفت إلى سواه ساعة حديثه ولقائه، قد بعدت شقته وعظمت غفلته، فإذا كان نسيان الإنسان لربه حال معافسته الأهل والأولاد، ووقت اشتغاله بالتجارة والضرب في الأسواق، غفلة وخسران: **{يا أيها الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلاَ أَوْلاَدُكُمْ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُون} [المنافقون:٩]**، فما بالك بمن كان التهاؤه بما حرم عليه، ساعة مثوله بين يديه، لا شك أن ذلك أدهى وأمر، وأشد وأطم، وإن لم يكن ذلك غاية الخسران، فصاحبه- من حيث لا يدري- أقرب للعقاب منه للثواب؛ قد ألم به داء عضال، واختطفت سويداء قلبه الأغيار، وأوردته نفسه من الموارد فوق ما يطمع إليه الشيطان: (لا يزَالُ الشيطان، بِالْمَرْءِ يَقُولُ لَهُ: اذْكُرْ مَا لَمْ يَكُنْ يَذْكُرُ حَتَّى لاَ يَدْرِيَ كَمْ صَلَّى)[2]. ومن استحكمت منه غفلتة، وضربت بأطنابها في أعماق قلبه؛ فأسدلت على الأبواب دونه الأستار وحالت دون رؤية ربه الحجب والأغيار، فقد حُرِمَ من أفضل شعب الإيمان: (أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك)[3]، وذلك لعمري أكبر الحرمان: **{فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالآصَالِ رِجَالٌ لاَّ تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلاَ بَيْعٌ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلاَةِ وَإِيتَاء الزَّكَاةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالأَبْصَار}[النور:٣٦ :٣٧]**.

المطلب السادس/ إخبات وسكون:

خبت القوم: أي نزلوا في خبت من الأرض، والخبوت: هي بطون الأرض الواسعة المطمئنة، وأخبت القوم: صاروا في الخبت مثل أصحروا[4]. وهو الخشوع: إلا أنه يفرق عليه بالملازمة والاستمرار؛ لسكون قلب صاحبه واطمئنانه بالإيمان، فلازمه الخشوع والسكون والاستقرار[5].

---

(١) صحيح : سلسة الأحاديث الصحيحة (٧/ ١٦٨(

(٢) صحيح البخاري (٢/ ٦٧)

(٣) كما في الصحيحين البخاري (١/ ١٩)، ومسلم (١/ ٣٩)

(٤) معجم الفروق اللغوية (ص: ٢٥)، أساس البلاغة (١/ ٢٢٨)

(٥) انظر معجم الفروق اللغوية (ص: ٢٥)

والخضوع والإخبات كما أنه مخ الصلاة ولبها، فهو من أهم ثمرات الذكر والذي هو معقد الصلاة وغايتها: **{وَبَشِّرِ الْمُخْبِتِينَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَالصَّابِرِينَ عَلَى مَا أَصَابَهُمْ وَالْمُقِيمِي الصَّلاَةِ}[الحج:٣٤ :٣٥]**. والإخبات سكون في القلب مع خشوع وسعة في الصدر، فينقل العبد من ذكر اللسان إلى سعة البال، وسكون الحال ودوام الاستقرار، وإن كثيرا مما يلحق الناس في حياتهم من النصب والتعب، ونفوسهم من الضيق والضنك، هو نتيجة لنزقهم وطيشهم وعجلتهم وخفة عقولهم، وإن للصلاة ذات الإخبات والخضوع أثرها في سكون النفس، وطمأنينة القلب، وراحة البال: (أرحنا بها يا بلال).

وإن خشوعها وخضوعها، وما تضفيه على النفس من هالة السكينة والوقار والطمأنينة والأناة، لمن أنجع ما يستطب به الناس، وأنفع ما تداووا به من كثير من الأدواء والأسقام، كما أن في ذلك صيانة للنفس من اضطرابات الحيرة والجزع، ووقاية لها من أمراض الشح والهلع: **{إِنَّ الإِنسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا إِلاَّ الْمُصَلِّين}[المعارج١٩ :٢٢]**.

ومن تمام الخشوع: الأدب مع الله، ويكون في الصلاة باستحضار مناصبة الله الوجهة، فلا يلتفت قلب العبد ولا بصره إلى سواه: (إِنَّ اللهَ يَنْصِبُ وَجْهَهُ لِوَجْهِ عَبْدِهِ مَا لَمْ يَلْتَفِتْ ، فَإِذَا صَلَّيْتُمْ فَلَا تَلْتَفِتُوا)[(١)] . فإذا شهد القلب أذاقه الله من الشهد، فتاقت النفوس للازدياد من القيام: (كان يقوم من الليل حتى تتفطر قدماه)[(٢)] ، ونشطت النفوس للعبادة ولم تستثقلها الأبدان، واعتادت دروبها حتى غدت سلوتها في الخلوات: **{كَانُوا قَلِيلاً مِّنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُون}[الذاريات:١٧]**، أنسوا بها فأنساهم خشوعها طول المقام: **{وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلاَّ عَلَى الْخَاشِعِين}[البقرة:٤٥]**.

وهذا الأدب يتدرب عليه العبد كل يوم أكثر من خمس مرات فتغشاه سمات الصالحين، فيكون من علامات القبول أن يدأب العبد على هذا الحال ويلزم هذا الأدب في كل أحيانه وسائر أوقاته، مع خالقه وخلقه، في صلاته وبعد صلاته، وأن يلازمه في كل جولاته وخلواته، وفي جميع ساعاته وحالاته.

فالأرض غدت له مسجدا وطهورا، وجهاتها كلها قبلة ومحاريب، فحيثما تيمم وجهه فلا يغيب ربه عن خاطره: **{وَلِلّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُوَلُّواْ فَثَمَّ وَجْهُ اللّهِ إِنَّ اللّهَ وَاسِعٌ عَلِيم}[البقرة:١١٥]**. فلا يلتفت قلبه لغير الله، ولا يلغو فيما حرمه الله، منعه حياؤه أن ينتهك له حرمة، أو يخلف له عهدا أو يخفر له ذمة، أو يكشف له سترا، أو يظلم له عبدا، بصره مصان عما حرم عليه، مقصور على ما أحله له طاعة له وسمعا: **{قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ**

---

(١) رواه أحمد (١٧٨٠٠) ، وصححه الألباني في "صحيح الجامع" (١٧٢٤)

(٢) البخاري (١٣٥/٦)

ذَلِكَ أَزْكَى لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ}[النور: ٣٠]. فلازم بصره الخشوع والخضوع، فيرى الله في كل شيء حوله، فالخلائق عنده آية من آيات قدرته، والناس أثر من آثار حكمته وصنعته، فلا يزدري شيئا، ولا ينظر لبشر شزرا، ولا ينتقص لمؤمن قدرا: (بِحَسْبِ امْرِئٍ مِنَ الشَّرِّ أَنْ يَحْقِرَ أَخَاهُ الْمُسْلِمَ)[(١)]. نفسه متعففة عن الحرام، أبية عن الابتذال، عصية عن الامتهان، وقلبه راض بما خصه الله من العطاء، غير متشوف لما في أيدي الناس من الرعاع، ولا متطلع فوق ما قسمه الله له من المال والحطام، مؤثرا آخرته على دنياه، يقينه بأن ما عند الله خير للأبرار، قد ألهمه أمر ربه له بالمصابرة عليها، وحسن مقامه بين يديه، أن ما عند الله أحق بأن يقصر بصره عليه ويوجه اهتمامه إليه: **{وَلاَ تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَى. وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلاَةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا لاَ نَسْأَلُكَ رِزْقًا نَّحْنُ نَرْزُقُكَ وَالْعَاقِبَةُ لِلتَّقْوَى}[طه: ١٣١: ١٣٢]**.

المطلب السابع / تحكم وسيطرة:

شدد الإسلام على أهمية اشتراك الحواس في الصلاة، واستجماع كل قوى الإدراك الحسية والمعنوية لشيء واحد هو موضوع الصلاة، والصلاة فقط، ورتب على ذلك عظيم الأثر، وفي الآخرة وعد بموفور المثوبة والأجر: (مَنْ تَوَضَّأَ نَحْوَ وُضُوئِي هَذَا، ثُمَّ صَلَّى رَكْعَتَيْنِ لاَ يُحَدِّثُ فِيهِمَا نَفْسَهُ، غَفَرَ اللَّهُ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ)[(٢)]، ومجاهدة الإنسان على ذلك في الصلاة كفيلة بأن تجعله أقدر على مواجهة متاعب الحياة، وتحمل أعبائها والتجلد على مصاعبها ومشاقها، والصبر على مرارتها والتغلب على لأوائها. والصلاة هي غرفة التحكم ونقطة الارتكاز، فكما أن في الدماغ مراكز تحكم تؤثر في كل أجزاء الجسد؛ فكذلك هو حال الصلاة، فكل تفريعات حياتهم وتشعباتها لها ما يقابلها في الصلاة، على شكل رموز وإشارات، فغدت الصلاة مركز ضبط وتحكم وإعادة توجيه وتصويب مستمر؛ لذلك جاءت الصلاة متعاودة ومتكررة في اليوم عدة مرات، لو تحقق العبد بما فيها من المعاني، وأعطيت نصيبها من التعقل والتفهم؛ لوجدناها- على الدوام- حاضرة تمدنا بإلهامات جديدة وإصلاحات شاملة رشيدة في كل مناحي الحياة. هناك علم جديد يهتم بدراسة الإيمان والإلحاد من الناحية العصبية.. يستخدم فيه العلماء أجهزة المسح بالرنين المغناطيسي الوظيفي للدماغ بهدف اكتشاف تأثير الإيمان على الدماغ والفرق بين دماغ المؤمن ودماغ الملحد، فماذا كشف العلماء أخيراً؟ لقد وجدوا أن المحافظة على الصلاة والتأمل فيها يحدث نشاطاً إيجابياً في منطقة الناصية، وبنفس الوقت يخفض النشاط في المنطقة المسؤولة عن الإحساس بالفضاء أو المكان.. مما يساعد على الهدوء النفسي وزيادة القدرة على التفاعل العاطفي مع الآخرين.

---

(١) مسلم (٤/١٩٨٦)

(٢) صحيح البخاري (١/ ٤٤)

وفي دراسة نشرتها مجلة العلوم النفسية عام ٢٠١٠م تؤكد أن التفكير بالله يخفف الإجهاد ويساعد على الشعور بالراحة النفسية. وهذا يتفق مع قوله تعالى: **{الَّذِينَ آمَنُواْ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ اللّهِ أَلاَ بِذِكْرِ اللّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوب}[الرعد:٢٨]**.

والسؤال الذي يطرح عادة كيف لهذه العلاجات غير الكيماوية أن تساعد على شفاء مرض فيه خلل كيماوي؟ وواقع الأمر إنه لا يوجد أي غرابة، فالعلاج النفسي والاجتماعي والديني والرياضي وغيرها من الأساليب لابد أن يصل أثرها للدماغ، وفي الدماغ فإن كل شيء يحول ويترجم إلى كيماويات. فإن ذكر الله بالنسبة للمؤمنين يساعد على تحفيز جهاز المناعة ويؤثر على الأفيونات الطبيعية داخل الدماغ والتي تعطي أثرا مسكنا ومهدئا وبانيا، وبالتالي تؤثر على الناقلات العصبية الكيماوية[(١)].

وفي مقابل هذا يأتي السجود ليخلص الإنسان من شحناته السالبة؛ المكتسبة من الغلاف الجوي، وتترسّب على الجهاز العصبي وتؤثر عليه، ووجد بأنّ الطريقة المثلى لتوصيل الجسم بالأرض للتخلّص من هذه الشحنات هي وضعيّة السجود[(٢)]، مع الحرص على مباشرة الأرض بدون حائل، وصدق رسول الله ﷺ القائل: (تَمَسَّحُوا بِالْأَرْضِ فَإِنَّهَا بِكُمْ بَرَّةٌ)[(٣)].

وبتمكن الناصية من الأرض يعد السجود تمريناً يوميّاً وبشكل منتظم في أوقات محدّدة لمناطق التحكم في الدماغ، ممّا يؤدي إلى زيادة نشاط الدورة الدمويّة فيها، والقدرة على ضبط الجسم وعدم اهتزازه في حال تعرّض لضربة أو صدمة والتقليل من الإصابة بالدوار.

وكما أن الصلاة تحمل معاني ودلالات حياتية، فكذلك الحياة هي تحكي وتعكس قدر ما استوعبناه، وانتفعنا به من صلاتنا، فبينهما علاقة تأثرية، سلبا وإيجابا، فإن الصلاة ممحاة حقيقية لأخطاء الناس، وإن تقادم بهم الزمن مادامت تؤدى إيمانا واحتسابا كما وعد الله، فتسهم في تقويم الناس وتصويبهم بطريقة ديناميكية ذاتية أولا بأول، فإن صلحت صلاة العبد صلح إيمانه فأدت دورها فأصلحت سائر أحواله، وان فسدت فسد إيمانه، فساءت سائر أعماله، فإذا كانت الصلاة هي الصورة المختزلة المعبرة للحياة في الدنيا فلا غرو بعد ذلك أن يكون للصلاة هذه القيمة المعبرة والقدر المعتبر عند الحساب في الآخرة: (أَوَّلُ مَا يُحَاسَبُ بِهِ الْعَبْدُ صَلَاتُهُ فَإِنْ صَلُحَتْ صَلُحَ سَائِرُ عَمَلِهِ وَإِنْ فَسَدَتْ صَلَاتُهُ فَسَدَ سَائِرُ عَمَلِهِ)[(٤)].

---

(١) انظر كتاب: سلوكيات الاكتئاب للدكتور وليد سرحان استشاري الطب النفسي (ص ١٩٢)

(٢) نقلا بتصرف من موقع: موضوع https://g.co/kgs/FWMpiF

(٣) صحيح الجامع الصغير وزيادته (١/ ٥٧٦(

(٤) الأحاديث المختارة (١٤٥/٧) والطبراني في الأوسط (٢٤٠/٢) وهو حسن

فلا تنفك تدعو صاحبها لسلامة المعتقد، وصلاح الحال والمآل، مادام قائما عليها مؤديا لها على وجهها، فمن لم يجب ولم تحدث له ذكرا ؛ ففي صلاته دخن من شرك أو رياء، حال بينه وبين أن تترك به أثرا، هذا ما أرشدت إليه سورة الماعون وقد سميت بالماعون للتنبيه على المضمون، فقال سبحانه: **{فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّين الَّذِينَ هُمْ عَن صَلاَتِهِمْ سَاهُون الَّذِينَ هُمْ يُرَاؤُون وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُون}[الماعون:٤: ٥ :٦ :٧]**، والسورة فسرت بعضها بعضا فتوعدت المصلين، ثم التقطت لهم ثلاث صور توضيحية من زوايا مختلفة وكل صورة تختزل التي قبلها، حتى غدا منع الماعون مختزل لما قبله من الأعمال مانعه- أي الماعون- مستوجب للوعيد بالويل والثبور، وخص بالذكر هذا السلوك عن غيره كونه متعلق بطبقة لا يعبئ بها إلا من كان يؤمن بالله واليوم الآخر، أما أهل البذخ والرياء فمقصدهم عِلِيَةَ القوم وأهلَ الغناء والثراء، يرجون رضاهم ويطمعون منهم المدح والثناء وإن كانوا في عداد المصلين إلا أن لهم وصفين، أظهرا زيف صلاتهم وما فيها من الدخن، الأول: خفي لا يعلمه إلا الله، وهو مراءات الناس، والثاني: جلي ظاهر يدركه آحاد الناس وعجائز نسائهم، فضلا عمن سواهم، وهو منع الماعون. وهكذا عراهم وفككهم من صورتهم المركبة (المصلين)، وحللها إلى أبسط صورة(ويمنعون الماعون) وبه ختم السورة. والماعون: المتاع الذي يعار، من أدوات المهنة أو الطبخ أو الأسقية والأواني، كالقِدْر والميزان والدلو[1]، وخص الماعون نظرا لحقارته وعدم احتفاء أهله به، أو الضن به على الغير في الغالب، ولا يمنع ذلك إلا من خلت نفسه من الخير، وهو لا محالة لما فوقه أمنع وأبخل. وهذا المنع جاء ذمه وهو في سياق العارية وهي مؤداة، أما إذا كان المنع على جهة المنحة والصدقة فهذا في عداد السورة ممن يكذب بيوم الدين كما نطق بذلك مطلعُ السورة.

وهكذا فمن أهم ما يجب مراعاته في الصلاة حتى يكون لها الأثر البالغ والدور البارز في واقع الناس وحياتهم، توثيق الارتباط بالخالق سبحانه واستجلاء معاني الرقابة والحضور، والإخبات والخشوع داخلها وخارجها، والذي هو أم الصلاة ولبها وسر الأسرار وقداس الأقداس، وأهم ما يمكن استنطاقه من الأمر بإقامتها والمحافظة عليها: **{وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُون}[العنكبوت:٤٥]**. وبدوام ذكره يحيل بؤسهم إلى نديم وحياتهم إلى نعيم، والذكر الدائم هو بداية السير في الطريق، وأول مراحل التصحيح وهذا موضوع مطلبنا التالي:

المطلب الثامن/ ذكر فاعل ودعاء خالص:

الصلاة شرعت لذكر الله: **{وَأَقِمِ الصَّلاَةَ لِذِكْرِي}[طه:١٤]** والصلاة كلها ذكر، ابتداء من

---

(١) كما فسرها بذلك ابن مسعود وابن عباس: انظر التحجيل في تخريج ما لم يخرج من الأحاديث والآثار في إرواء الغليل (ص: ٢٣١)

التكبير وانتهاء بالتسليم، بل وما يتبعها من أذكار شرعت تداركا لما قد يلحق الصلاة من قصور أو نسيان في هذا الجانب، لأن الأصل أن لا يغيب ذكر الله عن قلب المرء وفكره وخاطره لحظة واحدة في صلاته، فمن لم يدم له كامل الحضور، فلا يكون القليل من الذكر هو رزقه وحظه منها، فيستوي حاله بحال: **{وَلاَ يَذْكُرُونَ اللّهَ إِلاَّ قَلِيلا}[النساء:١٤٢]**، أما من غيب فيها عن ذكر ربه بالكلية فما أجدره بقوله: **{فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّين الَّذِينَ هُمْ عَن صَلاَتِهِمْ سَاهُون الَّذِينَ هُمْ يُرَاؤُون} [الماعون:٤ :٥ :٦]**. وقد تنوع الذكر في الصلاة بتنوع الأحوال، ما بين تكبير وتسبيح وتحميد، فإذا فرغ العبد من صلاته أتبعها بالباقيات الصالحات، فأتى بهن تسعا وتسعين مرة نقدا؛ بمثابة إعلانا منه أن ذلك دأبه ودينا عليه بعدها، وانسحبت معه طيلة حياته من باب أولى: **{فَإِذَا قَضَيْتُمُ الصَّلاَةَ فَاذْكُرُواْ اللّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِكُمْ فَإِذَا اطْمَأْنَنتُمْ فَأَقِيمُواْ الصَّلاَةَ إِنَّ الصَّلاَةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَّوْقُوتًا}[النساء:١٠٣]**، ولا يزال المرء يذكر الله على كل أحيانه حتى يطمئن قلبه بذكر الله، أي يستوي ويستقر، فتستوي عنده أقدار الله خيرها وشرها حلوها ومرها: **{فَأَمَّا الإِنسَانُ إِذَا مَا ابْتَلاَهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَن وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلاَهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهَانَن كَلاَّ}[الفجر:١٥ :١٦ :١٧]**.

والمطمئن من الأرض: هي الأرض المنخفضة[(١)]، أي أن القلب: يخضع ويستقر ويذل وينطرح لله من كثرة الذكر، كما تستوي الأرض وتنخفض من كثرة الطرق والضرب والسير عليها، وإذا امتلأ القلب طمأنينة فاض على النفس فغمرها ولا يزال يسكب عليها من فيضه حتى تصير نفسا مطمئنة: وهي التي تم تنورها بنور القلب حتى انخلعت عن صفاتها الذميمة، وتخلقت بالأخلاق النبيلة والحميدة[(٢)].

وفي الصلاة شرع التكبير في كل خفض ورفع، وعند التحول من ركن لآخر، مما يوحي بأن حركات الإنسان وسكناته، وذهابه وإيابه، وقعوده وقيامه، وحضوره وانصرافه، وما يذره العبد وما يدع، وما يقوله ويفعله ويصنع، كل هذا وذاك يجب أن يكون مبعثه ومنشؤه، ومقصده ومبتغاه، هو الله لا سواه، فلا يكبر في حس المسلم ولا يعظم في شعوره شيء غير الله، وبالتالي فكل شيء يذكره بالله، ويذكر الله به، إن أكل أو شرب، إن خلع أو لبس، إن دخل أو خرج، إن طلع أو نزل، إن ذكر أو نسي، إن انخفض أو ارتفع، إن أقبل الليل أو أدبر النهار، إن لمع برق أو هطل مطر، أو جرى سحاب، إن سمع رعدا أو نظر إلى السماء إن أصابته ضراء أو أصابته سراء....الخ، وكيف لا يذكره وبه حياته ومماته، وبيده أرضه وسماؤه، ومنه مبدأه وإليه منتهاه، خيره ظاهر، ووجهه أبقى، وفضله أكبر، وعطاؤه أجزل، وكل شيء هو

---

(١) العين: (٧/ ٤٤٢)

(٢) انظر التعريفات (ص: ٢٤٣)

آية من آياته وأثر من آثاره، وكلما اعترض خاطره عارض غير الله، أو تعاظم في قلبه شيء غيره، ذكرته تكبيرات صلاته أن الله أكبر: **{وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ}[العنكبوت:٤٥]**.

ومن كان كذلك سكب الله على قلبه من السكينة والطمأنينة بقدر ما تحقق له منها في صلاته، وأعطاه من الوقار وجميل الألطاف بمثل ما تمثل به فيها: (ثُمَّ ارْكَعْ حَتَّى تَطْمَئِنَّ رَاكِعًا، ثُمَّ ارْفَعْ حَتَّى تَعْدِلَ قَائِمًا، ثُمَّ اسْجُدْ حَتَّى تَطْمَئِنَّ سَاجِدًا، ثُمَّ ارْفَعْ حَتَّى تَطْمَئِنَّ جَالِسًا، وَافْعَلْ ذَلِكَ فِي صَلاَتِكَ كُلِّهَا)[(١)]، فإذا ما غشيت هذه السكينة روح إنسان، وذلت بها جوارحه، كل يوم خمس مرات، فإنها وبدون شك ستترك أثرها عليه سائر أوقاته، وستعطي ثمارها في سلوكه في مختلف حالاته وتقلباته، فكلما ذكر اطمئن قلبه لذكر الله، وتزيده تلاوة كتابه رقة ولينا–قشعريرة في الجلود ووجل في القلوب، وتدبرا في العقول–، ومن لان جلده ورق قلبه واستنار عقله كان أهلا لرحمة الله، ومحلا للطفه ورأفته: **{فَوَيْلٌ لِّلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ اللَّهِ}[الزمر:٢٢]**، فإذا اطمأنت قلوبهم لذكر الله، سلمت نفوسهم لأقدار الله، فلا مكان فيها للخوف والهلع، ولا لليأس والجزع: **{لِكَيْلاَ تَأْسَوْا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلاَ تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ وَاللَّهُ لاَ يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُور}[الحديد:٢٣]**.

فإذا ما أصاب الإنسان من الدعة والنعمة، وخصه الله بشيء من العلو والرفعة، عرف لله حقه من الإحسان والفضل، ورفع إليه رأسه بالثناء والحمد، وكلما علم أن الله يزيد للشاكرين ويسمع للحامدين بادر برفع يده بجزيل الشكر له والامتنان: (وَإِذَا قَالَ: سَمِعَ اللَّهُ لِمَنْ حَمِدَهُ، فَقُولُوا: رَبَّنَا لَكَ الحَمْدُ)[(٢)].

والذكر هو ثمرة صلاة العبد بل هو ثمرة عباداته كلها، وهو خلاصتها وزبدتها، ومعقدها ومقصدها، ومفتتحها ومختتمها: **{وَأَقِمِ الصَّلاَةَ لِذِكْرِي}[طه:١٤]**. ومن جملة ما يذكره به العبد، بأن يذكره بأفضاله وإنعامه أن هداه ووفقه لطاعته وعبادته؛ فيلهج لسانه بالحمد والشكر: **{وَلِتُكْمِلُواْ الْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُواْ اللّهَ عَلَى مَا هَدَاكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُون} [البقرة:١٨٥]**. (إِنَّمَا جُعِلَ رَمْيُ الْجِمَارِ وَالسَّعْيُ بَيْنَ الصَّفَا، وَالْمَرْوَةِ لِإِقَامَة ذِكْرِ اللَّهِ)[(٣)]. **{فَإِذَا قَضَيْتُم مَّنَاسِكَكُمْ فَاذْكُرُواْ اللّهَ كَذِكْرِكُمْ آبَاءكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا}[البقرة:٢٠٠]**. والصلاة من جملة ذلك، تثمر حالا بالذكر محفوف، يستغرق كل أوقات الإنسان وأحواله: **{فَإِذَا قَضَيْتُمُ الصَّلاَةَ فَاذْكُرُواْ اللّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِكُمْ}[النساء:١٠٣]**.

وإنما قلنا الفاعل ليتميز ما نتحدث عنه من الذكر عن الذكر الخامل، والذي لا اثر له ولاحس، ولا لون له ولا رائحة، ولا ثمر له ولا أثر في واقع الناس وسلوكهم، فالذكر الحي به زكاة القلوب، وحياة

---

(١) صحيح البخاري (١/ ١٥٢)، صحيح مسلم (١/ ٢٩٨)

(٢) صحيح البخاري (١/ ١٤٧)

(٣) رواه الترمذي (٢٣٧/٣) وقال حسن صحيح وضعفه الألباني

الشعوب، ولا خير في ذكر لا تطيب به نفسا، ولا يقشعر له بدنا ولا يلين له جلدا، ولا يحيي به قلبا ولا يستنار به دربا: **{إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُون}[الأنفال:٢]**، **{إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَواْ إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُواْ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُون}[الأعراف:٢٠١]**.

والذكر الحي هو الذي يترك أثرا في صاحبه، فتتفتق للفهم عن الله مداركه، وتنجلي عن القلب غشاوته وعمايته، وقد نزه الله سجود عباده عن الغفلة واللاوعي لِمَا سجدوا له فقال: **{وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا} [الفرقان:٧٣]**، كما توعد الله من يذكر ولا ينتفع بما ذكر: **{وَإِذَا ذُكِّرُوا لاَ يَذْكُرُون}[الصافات:١٣]**. فلا خير بذكر لا ينجب فكرا، ولا خير في فكر لا يحدث أثرا، أو ينتج ثمرا، **{وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى}[الأعلى:١٥]**، ينتج في السراء شكرا وفي الضراء صبرا: **{فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُواْ لِي وَلاَ تَكْفُرُون}[البقرة:١٥٢]**.

وعدة الذاكرين ووسيلة الشاكرين الصلاة، فناسب عند الأمر بالذكر والشكر أن يتبعه الأمر بما هو من أدواته ووسائله: **{يا أيها الَّذِينَ آمَنُواْ اسْتَعِينُواْ بِالصَّبْرِ وَالصَّلاَةِ إِنَّ اللّهَ مَعَ الصَّابِرِين}[البقرة:١٥٣]**. ليترجم الذكر في صورة عمليه حركية: **{اعْمَلُوا آلَ دَاوُودَ شُكْرًا وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّكُور}[سبأ:١٣]**. ويذكره متلبسا بأسمى حالاته التعبدية، فينعكس عليه أثر ذلك خارج الصلاة، فيذكر العبد ربه في حالة الغنى فيؤدي حقه بالبذل والعطاء. ويذكره في حالة الأمن والتمكين فيشكر له فضله بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وإقامة شعائر الدين. يذكره في الابتلاء فيتجلد بالصبر والاحتساب. يذكره عند الاختلاف وشدة الاحتدام فيتخلق بالعدل والانتصاف. يذكره في حالة الغضب والغيظ فيحمل نفسه على العفو والكظم. يذكره في حالة النشوة والانتصار فيتحلى بالحمد والانكسار. يذكره في السعي والعمل فيتعنى بالإجادة والإتقان. يذكره في حال الكلام فيتوخى الصدق والسداد. ويذكره في حال الصمت فيتحلى بالادكار والاعتبار. يذكره في مواقع التضحية والإقدام فيتسلح بالتوكل عليه والاعتزام. يذكره في الإحجام والامتناع فيقصد التورع والاعتبار. يذكره في مواقف الجهاد والنزال فيزداد به ثباتا وإصرار. يذكره حال خلوته بالحدود والحرمات فيغشاه الحياء منه والاحتشام. يذكره حالة الذنب والتقصير فيفوق بالتوبة والإنابة. يذكره عند تعين الواجبات فينتج الطاعة والامتثال. يذكره في حالة الاختلاط فيسارع بالنصح والإرشاد. يذكره في مواطن الائتمان فيوفي الحفظ والأداء. يذكره في مواطن العهد والميثاق فيلتزم الوفاء والتمام. يذكره في مواطن المشاجرة والخصام فيبادر بالتقاضي إليه والاحتكام. يذكره عند مقادير الشر والخير فلا يجد غضاضة بالرضا والتسليم ... إلى غير ذلك من إيماءات: **(وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ)**.

وأكثر ما ورد في الكتاب العزيز من أمر وإشادة وترغيب في الذكر جاء مقترنا معه ببيان أثره

وثمرته؛ باعتباره وسيلة معززة ومحفزة لغيرها من الأعمال، كقوله: **{إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ}[الأنفال:٢]**، جاء في سياق بيان أثره الانفعالي النفسي والتأثر القلبي، وثمرته في زيادة منسوب الإيمان في قلب المؤمن، وقوله: **{وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُواْ فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُواْ أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُواْ اللّهَ فَاسْتَغْفَرُواْ لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلاَّ اللّهُ وَلَمْ يُصِرُّواْ عَلَى مَا فَعَلُواْ وَهُمْ يَعْلَمُون}[آل عمران:١٣٥]**، جاء في سياق الحض على التوبة والإقلاع عن الظلم، مهما ضعفت نفوسهم وبلغت ذنوبهم، وقوله: **{الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُواْ لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَاناً وَقَالُواْ حَسْبُنَا اللّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيل}[آل عمران:١٧٣]**، جاء في سياق الحض على الثبات في مواطن الخوف وفي مواجهة الشدائد.

ويخطئ بل ويجني جناية فادحة في حق نفسه وفي حق ربه من قصر ذكرَه سبحانه على لوك الكلام وتمتمة الشفاه وتقليب اللسان، عازلا ذكره عن انفعال القلب، وصلاح الحال، والتأثير فيه، ومغالبة الشدائد والتقوي به في مواطن النزال: **{يا أيها الَّذِينَ آمَنُواْ إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُواْ وَاذْكُرُواْ اللّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلَحُون}[الأنفال:٤٥]**.

فالذكر الفاعل يجلي البصر وينير البصيرة ويمد البدن بألطاف التوفيق، والروح بأطياف القوة والطاقة التي تشحذها في الحياة بالغةً بها عند بارئها في الآخرة: **{إِنَّمَا تُنذِرُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالغَيْبِ وَأَقَامُوا الصَّلاَةَ وَمَن تَزَكَّى فَإِنَّمَا يَتَزَكَّى لِنَفْسِهِ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِير}[فاطر:١٨]**. وملاك الذكر وجوامعه في الصلاة والقليل فيها كثير عند الله: (مَنْ قَامَ بِعَشْرِ آيَاتٍ لَمْ يُكْتَبْ مِنَ الغافلين ومن قام بمئة آيَةٍ كُتِبَ مِنَ الْقَانِتِينَ وَمَنْ قَامَ بِأَلْفِ آية كُتِبَ من المقنطرين[(١)].

المبحث الثاني/ أعمال الصلاة وانعكاساتها على شتى مجالات الحياة:

ليست الصلاة مدرسة ولا جامعة فحسب، بل هي أكبر من أكاديمية عليا، يتخرج منها الأصفياء والأتقياء، ومصنع يصنع فيه العباد والأولياء. فالصلاة شملت كثيرا من العبادات، وتجسدت فيها كثير من معاني الإسلام، وعلى رأسها أركان الإسلام: الشهادتان وما دونهما، فالشهادتان أمرهما واضح، سواء بما تضمنته هي نفسها أو ما اشتمل عليه نداؤها المتقدم عليها، وما سمي التشهد فيها تشهدا إلا لذكر الشهادتين فيه[(٢)]. ومن الحج: استقبال الكعبة، والمسجد الحرام، والذي هو مهوى أفئدة كل المسلمين، وتيممه شرط لصحة كل صلاة. ومن الصيام: حرم الأكل والشرب فيها[(٣)]، وكل رفث وساقط من القول

---

(١) صحيح: التعليقات الحسان على صحيح ابن حبان (٤/ ٢٥٩)

(٢) شمس العلوم ودواء كلام العرب من الكلوم (٦/ ٣٥٧٤)

(٣) في صحيح مسلم (١/ ٢٧) :(أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ شَرِبَ لَبَنًا، ثُمَّ دَعَا بِمَاءٍ فَتَمَضْمَضَ»، وَقَالَ: «إِنَّ لَهُ دَسَمًا»

وما هو أقل من ذلك من كلام الناس. ومن الزكاة: لأدائها لابد من اقتطاع جزء من الزمن، يحرم فيه البيع والشراء، ويتوقف الإنسان فيه عن العمل، والذي هو وعاء تحصيل المال وأداة اكتسابه، وهكذا نجد أن الصلاة قد اختزلت أركان الإسلام، ناهيك عما اشتملت عليه من أنواع العبادات الأخرى قلبية كانت أو قولية أو بدنية، فإذا كانت الصلاة قد اشتملت على كل هذه المعاني التعبدية فهي لا تخلو كذلك من إشارات ودلالات تحاكي كثيرا من الصور الحياتية، وتختصر كثيرا من القوانين والسنن التي ينضبط بها مسار الحياة، ويستقيم بها اعوجاج الناس، فيسترشد بها الساري ويتنبه بها الساهي، ويتعلم منها الغر.

فحياة الناس تحكمها منظومة من المبادئ والقيم والصلاة أشارت لمجمل معاني هذه المبادئ والقيم ودلت عليها. فلا عجب أن نجد القرآن قد زاوج بين الصلاة وسائر أعمال البر، سواء من ذلك ما كان في صورة الاقتران أو السياق، أو تبادل الاطلاقات اللفظية، فقد يطلق لفظ الصلاة على بعض أعمال البر قوله: {**وَلاَ تَجْهَرْ بِصَلاَتِكَ وَلاَ تُخَافِتْ بِهَا وَابْتَغِ بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلا**}**[الإسراء:١١٠]**. فصلاتك هنا بمعنى قراءتك[(١)]. كما قد يسمي الصلاة ببعض أعمال البر أيضا، كقوله: {**وَمَا كَانَ اللّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ**}**[البقرة:١٤٣]**. فسمى الصلاة إيمانا[(٢)]، ومثله ما ثبت في الحديث الشريف: (الطُّهُورُ شَطْرُ الْإِيمَانِ)[(٣)].أي الوضوء أو الطهارة نصف الصلاة. وقوله تعالى: {**يَا بَنِي آدَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وكُلُواْ وَاشْرَبُواْ وَلاَ تُسْرِفُواْ إِنَّهُ لاَ يُحِبُّ الْمُسْرِفِين**}**[الأعراف:٣١]** فهذه الآية تدل على فرض ستر العورة في الصلاة فعند كل مسجد: أي عند كل صلاة[(٤)].

فأضحت الصلاة مدرسة ذات منهج دقيق ونظام بديع يدعى لها كل مسلم في اليوم خمس مرات، يهرع فيها لبيت من بيوت الله لاستلهام هذه الدروس، والتشبع بهذه المعاني حتى تصطبغ الحياة بصبغة الصلاة، وتكتسي دنياهم بحلة العبادة، فلا فرق بين محرابيها، والمسلم أخذ العهد على نفسه ويكرر عهده هذا في مفتتح كل صلاة أمام الله بأن لا يفرق بين صلاته وحياته، وأن لا يتخلى في عبادته عن أحدهما: {**قُلْ إِنَّ صَلاَتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلّهِ رَبِّ الْعَالَمِين**}**[الأنعام:١٦٢]**. فهيئات

---

(١) جاء في صحيح البخاري (٦/ ٨٧)، وفي صحيح مسلم (١/ ٣٢٩) : نزلت ورسول الله ﷺ مختف بمكة، كان إذا صلى بأصحابه رفع صوته بالقرآن، فإذا سمعه المشركون سبوا القرآن ومن أنزله ومن جاء به، فقال الله تعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم: {ولا تجهر بصلاتك} [الإسراء: ١١٠] أي بقراءتك، فيسمع المشركون فيسبوا القرآن {ولا تخافت بها} عن أصحابك فلا تسمعهم، {وابتغ بين ذلك سبيلا).

(٢) في صحيح البخاري (١/ ١٧) : وَقَوْلُ اللَّهِ تَعَالَى: {وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ} [البقرة: ١٤٣] يَعْنِي صَلاَتَكُمْ عِنْدَ البَيْتِ

(٣) صحيح مسلم (١/ ٢٠٣)

(٤) أحكام القرآن للجصاص ط العلمية (٣/ ٤١)

الصلاة ابتداء من التكبير وانتهاء بالتسليم لا تخلو من دلالات ومعاني تطال الحياة كلها، فما من أمر ذي شأن إلا وله في الصلاة إشارة تقابله وصورة مصغرة تحاكيه وتمثله، فكلما أصلح المرء من حال صلاته صلح بقدره ما يقابله من صور الحياة، هذه الحقيقة لم تخف على قوم شعيب رغم كفرهم، إذ قالوا لنبي الله شعيب: **{قَالُواْ يَا شُعَيْبُ أَصَلاَتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاء إِنَّكَ لأَنتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيد}[هود:٨٧]**، فأدركوا رغم عمايتهم، وفساد فطرتهم أن للصلاة أمرا ونهيا على صاحبها، كما قال سبحانه: **{إِنَّ الصَّلاَةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاء وَالْمُنكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُون} [العنكبوت:٤٥]**. نكتفي بهذه المقدمة لننتقل بعدها للكشف عن انعكاسات الصلاة على بعض صور الحياة، وسنكتفي بعرض نماذج من ذلك في المطالب التالية:

المطلب الأول / مسارعة للصلاة ومسابقة للخيرات:

جاء الأمر بالمسارعة للصلاة على جهة الخصوص فقال: **{إِذَا نُودِي لِلصَّلاَةِ مِن يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُون}[الجمعة:٩]**. كما جاء الحث على المسارعة للخيرات ولكن في سياق الحديث عن الصلاة فقال: **{وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا فَاسْتَبِقُواْ الْخَيْرَاتِ}[البقرة:١٤٨]**. ومثل هذا ما جاءت به السنة من الترغيب بالتبكير، مع المسابقة لأوائل الصفوف، وإدراك تكبيرة الإحرام، والمرابطة بانتظار الصلاة بعد الصلاة، وفي كل هذا أعظم تأهيل للفرد المسلم وتدريب له على المبادرة والمسابقة لكل عمل صالح يحبه الله، في كل مناحي الحياة، وقد جاء الحث على ذلك على سبيل العموم بقوله: **{وَسَارِعُواْ إِلَى مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِين}[آل عمران:١٣٣]**. فالمؤمن في تجارته مع ربه لا تحكمه المزاجية في التعامل مع النصوص، ولا يطاوعه إيمانه أن يتعامل بانتقائية في ما يأتي أو يدع من الطاعات، فاعتياده للمسارعة للصلوات روضته وجعلته سهل الاستجابة سريع الانطلاقة أنى سمع هيعة أو صيحة في مرضاة ربه، فهل يستقيم لعاقل يحرص على مزاحمة الناس في الصفوف الأول أن يدع- مثلا- مقارعة الباطل ومجابهة الفساد ونبيه يقول: (رِبَاطُ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ خَيْرٌ مِنْ صِيَامِ شَهْرٍ وَقِيَامِهِ)[1]، فيستحيل أن يرغب عن هذا العرض المغري والعوض المجزي إلا ضعيف إيمان، أو جاهل بأبواب الخير، خائر الهمة في تحسس مواطن مرضاة ربه، وطرق الفوز بما عنده، قد أغراه شيطانه فأقعده عن أبواب كثيرة، ونظر لنفسه بعين الرضي، فحرمه غروره عن بلوغ القمة وإدراك الغاية القصوى من العلا من الجنة، مؤثرا السلامة والدعة والراحة عن التشمير لنيل رضا ربه بمعالي الأمور، ومن هنا يجدر بنا التفطن لسر من أسرار السياق ومناسبة ورود الخطاب في قوله: **{فَاسْتَبِقُواْ الْخَيْرَاتِ}[البقرة:١٤٨]** بصيغة العموم رغم أن السياق سياق الخصوص؛

(١) صحيح مسلم (٣/ ١٥٢٠)

إذ الآية توسطت الحديث عن الصلاة والحث عليها وتحديد قبلتها والوجهة التي تؤدى إليها. وما ذلك إلا للدلالة على أن الصلاة هي نقطة إشعاع ينبعث منها النور فيغمر إشعاعه كل جوانب حياة الفرد، وهي قلب المؤمن وضميره الحي، الداعي لصاحبه لكل فضيلة، المنطلق به لكل أبواب الخير، الحامل له للقيام بتكاليف ربه ووسيلته الكبرى للقيام بوظيفة الاستخلاف في الأرض. ولضعف الإنسان وعجزه عن القيام بحق ربه على جهة الكمال والتمام داخل الصلاة وخارجها حسن به أن يكون دائم التذلل والافتقار، ملازم التوبة والاستغفار، عقب الصلوات والطاعات وفي سائر الأحوال: (كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ، إِذَا انْصَرَفَ مِنْ صَلَاتِهِ اسْتَغْفَرَ ثَلَاثًا)[1]، ثم انصرف الى سارية يذكر الله ويمجده.

فإذا كان هذا هو شأنه في ساعات العبادة والطاعة فكيف بحاله في غيرها من أوقات الهفوات والغفلات، وساعات المعاصي والزلات؛ ليبقى المرء في كل لحظاته مستشعرا افتقاره إلى ربه وحاجته إلى إمداده وألطافه، مقرا بتقصيره في جنب ربه، وتفريطه بحق مولاه، قدوته رسوله الكريم: (كَانَ النَّبِيُّ ﷺ يَذْكُرُ اللَّهَ عَلَى كُلِّ أَحْيَانِهِ)[2]. وفي هذا حسم لمادة الغرور، ووصد لأبواب الإعجاب، وغض النظر للعمل بنظر الاستعظام والاستحسان، والقطع بالرضا والقبول. فمهما كانت طاعتك وقربتك فهي ضئيلة في جنب الله، وصغيرة حيال نعمه وآلائه عليك، ناهيك عما قد يشوبه من دغل أو زغل أو دخن، فلا يملك العبد إلا أن يتدارك هذا النقص ويجبر هذا الخلل بدوام التوبة والاستغفار، والاعتراف بالتقصير والذنب، لسان الحال: **{رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ}[الأعراف:٢٣]** .

المطلب الثاني/ إمامة الصلاة وولاية الحكم تلازم وتشابه:

إمامة الصلاة يقابلها إمامة الدولة، وكلاهما على درجة من الأهمية والمكانة ولا ينازع إمام في سلطته، كما لا يؤم الرجل في بيته وسلطانه في حضرته وبدون إذنه، ووجوبهما ثابت بنصوص كثيرة من الكتاب والسنة، ففي الصلاة أكثر آياتها جاء الأمر بها بصيغة الجمع مما يعطي انطباعا مبدئيا بأن الأصل فيها الجماعة، والإمامة من لوازم الجماعة ومن ضرورياتها، وقد جاءت السنة مبينة لها، مفصلة لأحكامها، وكذلك شأن الإمارة، فشأن وجوبها شأن إمامة الصلاة، ومن ذلك قوله: (مَا مِنْ ثَلَاثَةٍ فِي قَرْيَةٍ، وَلَا بَدْوٍ لَا تُقَامُ فِيهِمُ الصَّلَاةُ إِلَّا قَدِ اسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ الشَّيْطَانُ فَعَلَيْكَ بِالْجَمَاعَةِ، فَإِنَّمَا يَأْكُلُ الذِّئْبُ الْقَاصِيَةَ)[3].

فثلاثة وأكثر يتعين عليهم الاجتماع وتقديم أحدهم ليؤمهم فيها؛ لهو إشارة لوجوب اجتماعهم

---

(١) صحيح مسلم (١/ ٤١٤)

(٢) صحيح البخاري (١/ ١٢٩)، صحيح مسلم (١/ ٢٨٢)

(٣) المستدرك على الصحيحين للحاكم (٢/ ٥٢٤) ووافقه الذهبي

واختيار أحدهم لقيادتهم وإدارة شؤون حياتهم كلها لمن باب أولى: (إِذَا خَرَجَ ثَلَاثَةٌ فِي سَفَرٍ فَلْيُؤَمِّرُوا أَحَدَهُمْ)[1].

فملحظ أدلة وجوبها في الحياة هي من جنس ملحظ أدلة وجوبها في الصلاة، وقد علم أن الله ﷻ أمر المسلمين بأمور كثيرة، ليس في مقدور آحادهم القيام بها، ومن هذه الأمور إقامة الحدود، وحفظ الأمن، وتجهيز الجيوش المجاهدة؛ لنشر الإسلام، وإعلاء كلمة الله، وجباية الزكاة وصرفها في مصارفها المحددة، وسد الثغور وحفظ حوزة المسلمين، ونشر العدل ودفع الظلم، وقطع المنازعات الواقعة بين العباد.. إلى غير ذلك من الواجبات التي لا يستطيع أفراد الناس القيام بها، فكان لا بد من إيجاد جهة ذات سلطة وقوةٌ، لها حق الطاعة على الأفراد، تقوم بتنفيذ هذه الواجبات، وهذه السلطة هي الإمامة. وهي ضرورة اجتماعية لا يمكن الاستغناء عنها فبالإضافة لكون الإمارة والقيادة من لوازم الاجتماع فهي أيضا واجب من الواجبات الشرعية؛ للقاعدة الشرعية القاضية بأن: (ما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب)[2]، وإلا ماجت وراجت أحوال الناس على نحو ما قال الشاعر: لا يَصْلُحُ النَّاسُ فَوْضَى لَا سَرَاةَ لَهُمْ * وَلَا سَرَاةَ لهم إِذَا جُهَّالُهُمْ سَادُوا. وعجبا لأقوام- ليسوا بالقليلين- يتزاحمون على الصفوف الأولى في الصلاة، ويحرصون على أن لا تفوتهم تكبيرة الإحرام مع الإمام؛ ليتابعوه في بضع آيات، وفي إسقاط فريضة من فرائض الله عليهم، كيف يغفلون عن أهمية السعي لإيجاد خليفة وإمام لهم يعمل فيهم كتابَ الله برمته، ويُنفِذُ فيهم أحكامَه: **{وَهَذَا كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ فَاتَّبِعُوهُ وَاتَّقُواْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ}[الأنعام:١٥٥]**، ويسعون من ورائه لإسقاط عشرات ومئات الفرائض التي أمر الله أن تَحكم حياتهم، ويسوسهم بما أمر الله أن يسوسهم به في كتابه الكريم: **{إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللّهُ وَلاَ تَكُن لِّلْخَآئِنِينَ خَصِيمًا}[النساء:١٠٥]**. ولن يتأتى لهم ذلك إلا بتنصيب إمامٍ للمسلمين؛ يحي فيهم شعائر الإسلام؛ ويحمي بهم بيضة المسلمين، وبدونه لا تَسلم لهم دنيا ولا دين، ولا يصفو لهم سلام ولا إسلام، قال رسولنا الكريم: (مَنِ مَاتَ وَلَيْسَ عَلَيْهِ إِمَامٌ مَاتَ ميتة جاهلية)[3].

وعجبي لأقوام يحرصون على موافقة الإمام ومتابعته ليحظوا بثواب الإتباع: (إِذَا أَمَّنَ الْإِمَامُ فَأَمِّنُوا، فَإِنَّهُ مَنْ وَافَقَ تَأْمِينُهُ تَأْمِينَ الْمَلَائِكَةِ، غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ)[4] كيف استجازوا لأنفسهم مفارقة إمامَ

---

(١) سنن أبي داود (٣/ ٣٦)

(٢) انظر العدة في أصول الفقه (٢/ ٤١٩(

(٣) السنة لابن أبي عاصم ومعها ظلال الجنة للألباني (٢/ ٥٠٣) وحسنه

(٤) سنن أبي داود (١/ ٢٤٦)

السلطةِ العدل، ويرضوا أن يجري عليهم وعيده الشديد وتهديده الكبير: (مَا أَحَدٌ يُفَارِقُ الْجَمَاعَةَ شِبْرًا فَيَمُوتُ، إِلا مَاتَ مِيتَةً جَاهِلِيَّةً)[1]. فالواعد هو المتوعد، والآمر هو الناهي، ولا مناص من التسليم لكل ما صدر عنه، والامتثال لكل ما حكم به؛ لأن البديل هي تسلط الأهواء، وفرض قانون الغاب والتسليم لحكم الطاغوت.

وكما أنه لا معنى للإمام بدون متابعة وانقياد من المأمومين، فكذلك شأن الحاكم لا معنى لإمامته دون امتثال وسمع وطاعة من الرعية والمحكومين، ففي الإمامة قال: (إِنَّمَا جُعِلَ الإِمَامُ لِيُؤْتَمَّ بِهِ فَلا تَخْتَلِفُوا عَلَيْهِ، فَإِذَا كَبَّرَ فَكَبِّرُوا، وَإِذَا رَكَعَ فَارْكَعُوا، وَإِذَا قَالَ: سَمِعَ اللَّهُ لِمَنْ حَمِدَهُ، فَقُولُوا: رَبَّنَا وَلَكَ الْحَمْدُ، وَإِذَا سَجَدَ فَاسْجُدُوا، وَإِذَا صَلَّى جَالِساً فَصَلُّوا جُلُوساً أَجْمَعُونَ)[2].

وفي الإمارة قال: (وإن أُمِّر عليكم عبدٌ مجدعٌ[3] يقودكم بكتاب الله، فاسمعوا له وأطيعوا)[4].

وكلا الطاعتين قيدهما المعروف، فلا طاعة لمخلوق في معصية الخالق، فلو تابع المأموم إمامه بالصلاة فيما فيه زيادة أو نقصان، أو بما ليس منها، أو فيه إفساد لها أو إخلال بنظمها، فصلاته باطلة، وحال الإمام في ذلك: إما متعمدٍ أو ساهٍ، فالساهي حقه على المأمومين تنبيهه بالتسبيح، والمخطئ حقه بالفتح عليه والتصحيح، فإن استمر على خطئه فإن كان ذلك عن تعمد فصلاته باطلة، ويأثم ظاهرا وباطنا، ويلزم المأمومين مفارقته، ولا يلحقهم شيء من خطئه، ما لم يتابعوه فتبطل صلاة الجميع.

وإن لم يتعمد ذلك وكان يرى نفسه مصيبا، لزمه ما رأى ولا يلزم به أحدا سواه، بل الغير ملزم بمفارقته فيما يرون أنه تجاوز فيه وأساء، ومتابعته فقط فيما أحسن وأصاب، وأما من تابعه في كل الأحوال فلا صلاة له.

ومثل هذا يقال في إمارة السلطان: **{وَلاَ يَعْصِينَكَ فِي مَعْرُوفٍ}[الممتحنة:١٢]**، فحق الأمير على رعيته إن أخطأ النصح والبيان: (الدِّينُ النَّصِيحَةُ: قلْنَا: لِمَنْ؟ قَالَ: لِلَّهِ وَلِرَسُولِهِ وَلأَئِمَّةِ المسْلِمِينَ وَعَامَّتِهِمْ)[5]. فإن أصر على خطئه وعصيانه فلا طاعة له على أحد من المسلمين، فمن أطاع إمامه في باطل أو ظلم أو عدوان فالآمر والمأمور في النار: بعث النبي ﷺ سرية، فاستعمل عليهم رجلا من الأنصار، وأمرهم أن يطيعوه فغضب، فقال: أليس أمركم النبي ﷺ أن تطيعوني ؟ قالوا: بلى، قال: فاجمعوا

---

(١) مسند احمد (٤/ ٤٣٤) وإسناده صحيح على شرط الشيخين

(٢) صحيح البخاري (١/ ١٤٥)

(٣) عبد مجدع: أي مقطع الأعضاء لسان العرب (٨/ ٤١)

(٤) صحيح مسلم (٢/ ٩٤٤)

(٥) صحيح البخاري (١/ ٢١)، صحيح مسلم (١/ ٧٤)

لي حطبا، فجمعوا، فقال: أوقدوا نارا، فأوقدوها، فقال: ادخلوها، فهموا، وجعل بعضهم يمسك بعضا، ويقولون: فررنا إلى النبي ﷺ من النار، فما زالوا حتى خمدت النار ، فسكن غضبه، فبلغ النبي ﷺ فقال: (لو دخلوها ما خرجوا منها إلى يوم القيامة، الطاعة في المعروف)[1] .

ولو أقام الأمير الصلاة في الناس كما أمره الإسلام وأرشد إليه رسولنا الكريم: (مَا أَقَامُوا فِيكُمُ الصَّلَاةَ)[2] ؛ لتعلموا معنى الإمامة وما يستتبعها من طاعة وانقياد، ومناصحة ومراجعة وإرشاد، فحين نطقوا بالحق وأمروا به كانوا بمنزلة: (إِذَا أَمَّنَ الْإِمَامُ فَأَمِّنُوا، فَإِنَّهُ مَنْ وَافَقَ تَأْمِينُهُ تَأْمِينَ الْمَلاَئِكَةِ غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ)[3] . ولعلموا أنهم ما استحقوا حق الطاعة على الأتباع إلا لقيامهم بواجب شرعي وعبادة دينية، لا شرعية ولا طاعة لهم بدونها على التمام، فالشارع لم يمنح أحدا طاعة مطلقة إلا لرسوله ﷺ، وأما غيره فطاعتهم طاعة تبعية لله ولرسوله: **{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ أَطِيعُواْ اللّهَ وَأَطِيعُواْ الرَّسُولَ وَأُوْلِي الأَمْرِ مِنكُمْ}[النساء:٥٩]**. وبهذا ندرك السر في عدم عطف فعل الأمر: "وأطيعوا" لأولي الأمر؛ وذلك نظرا لأن طاعتهم من جنس طاعة الله ورسوله وليست مستقلة عنهما، بخلاف طاعة رسوله فله طاعة تبعية كما أن له طاعة مستقلة وهو ما دلت عليه هذه الآية. كما أرشدت هذا الآية كذلك إلى احتمالية وقوع المنازعة بين ولي الأمر وبين رعيته ولا غرو في ذلك، إلا أنه يجب عليه كما يجب عليهم رد الأمر المتنازع فيه إلى حكم الله وحكم رسوله، ولا أحد له حق مفروض على الآخر يجب التسليم له لا باسم الشعب ولا باسم الحاكم.

والمناصحة لا تعني بالضرورة المعارضة في كل شيء، وفي كل آن، والتي تنتج عداء متبادلا، وإنما هي مكاشفة عند اللزوم عن مواطن الخلل، لخلق التكامل بين الرئيس والمرؤوس، تماما كحال المأمومين يفارقون إمامهم فيما أخطأ فيه، مع استمرار انعقاد إمامته، ولزوم متابعته فيما وراء ذلك.

أما موضوعهما فهو إسقاط ما أوجبه الله على المجموع من فرائض شرعية، ومن هنا لزم كل طرف تعهد صاحبه فيما هو مناط به من واجبات، فكما يؤم الإمام المأمومين في التوجه إلى الله والتنقل بهم من ركن إلى ركن، متعهدا لهم، مراعيا حالهم، فلا يشرع فيها حتى يرى حسن مقامهم من ورائه، وتمام توجههم من بعده[4] : (كانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يُسَوِّي صُفُوفَنَا حَتَّى كَأَنَّمَا يُسَوِّي بِهَا الْقِدَاحَ حَتَّى رَأَى أَنَّا قَدْ عَقَلْنَا عَنْهُ، ثُمَّ خَرَجَ يَوْمًا فَقَامَ، حَتَّى كَادَ يُكبرُ فَرَأَى رَجُلًا بَادِيًا صَدْرُهُ مِنَ الصَّفِّ، فَقَالَ: (عِبَادَ اللهِ

---

(١) صحيح البخاري (٧١٤٥).

(٢) صحيح مسلم (٣/ ١٤٨١)

(٣) صحيح البخاري (١/ ١٥٦)

(٤) للألباني كلام نفيس في هذا انظر موسوعة الألباني في العقيدة (٤/ ٧٥)

لَتُسَوُّنَّ صُفُوفَكُمْ، أَوْ لَيُخَالِفَنَّ اللهُ بَيْنَ وُجُوهِكُمْ)[1]، ولا يألو جهدا في نصحهم وإرشادهم فيما يصلح فريضتهم، مع مراعاة حالهم في الإمامة فيراعي الضعيف، ولا يغفل عن ذي الحاجة، ولا يضيع حق صغير ولا كبير ولا رجل ولا امرأة: (يَا أَيُّهَا النَّاسُ، إِنَّ مِنْكُمْ مُنَفِّرِينَ، فَأَيُّكُمْ مَا صَلَّى بِالنَّاسِ فَلْيَتَجَوَّزْ، فَإِنَّ فِيهِمُ المَرِيضَ وَالكَبِيرَ وَذَا الحَاجَةِ)[2]. فلا يحمله نشاطه ورغبته في العبادة، عن ملاحظة ظروف الناس وتفقد وضعهم والنزول عند مقتضى حالهم، يستوي ذلك قبل الصلاة وحال الصلاة وبعدها سواء بسواء: (إِنِّي لَأَقُومُ فِي الصَّلاَةِ أُرِيدُ أَنْ أُطَوِّلَ فِيهَا، فَأَسْمَعُ بُكَاءَ الصَّبِيِّ، فَأَتَجَوَّزُ فِي صَلاَتِي كَرَاهِيَةَ أَنْ أَشُقَّ عَلَى أُمِّهِ)[3]. فإذا كان هذا رسول الله وهو متلبس بالعبادة في أثناء الصلاة ومع ذلك لم يغفل عن ملاحظة حال المصلين من خلفه، فمن باب أولى غيره وخارج الصلاة، وبعدها كان له ﷺ لفتة في هذا: (كَانَ النَّبِيُّ ﷺ إِذَا صَلَّى الصُّبْحَ أَقْبَلَ عَلَيْهِمْ بِوَجْهِهِ فَقَالَ: «هَلْ رَأَى أَحَدٌ مِنْكُمُ الْبَارِحَةَ رُؤْيَا)[4].

وكذلك يجب أن يكون الراعي: (مَا مِنْ عَبْدٍ يَسْتَرْعِيهِ اللهُ رَعِيَّةً، يَمُوتُ يَوْمَ يَمُوتُ وَهُوَ غَاشٌّ لِرَعِيَّتِهِ، إِلَّا حَرَّمَ اللهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ)[5]. فيحيطهم بنصحه، ويسير بهم سير أضعفهم: (إِنَّ شَرَّ الرِّعَاءِ الْحُطَمَةُ)[6]. ويقرب صالحهم ويبعد غير الأكفاء عن مواقع القيادة والتأثير، وينزل الناس منازلهم، تماما كما علمتنا الصلاة: (لِيَلِنِي مِنْكُمْ أُولُو الْأَحْلَامِ وَالنُّهَى ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ)[7]. وهذا يقودنا للحديث عن مواصفات الإمامة وشروطها والذي سنفرده في المطلب التالي:

المطلب الثالث/ تقدم الصفوف وقيادة الشعوب أهلية وشروط:

من حيث المبدأ فإن أول مفردات أهليه القيادة والإمامة، وأخص خصائصهما المبدئية: الرضا والاختيار، وهذا آخر ما وصلت إليه المدنية الحديثة من حقوق منتزعة، بعد نضال طويل وتجارب عديدة وتاريخ مليء بالصراعات والاقتتال، حفظت بها حقها ومستقبلها السياسي، وحقوقها المدنية، وحريتها الشخصية، كثمرة لنضالها الطويل، وأبرز منجزاتها المكتسبة، التي تحتسب لها في هذا الجانب مع التحفظ

---

(١) صحيح مسلم (١/ ٣٢٤)

(٢) صحيح البخاري (٨/ ٢٧)، صحيح مسلم (١/ ٣٤٠)

(٣) صحيح البخاري (١/ ١٤٣)

(٤) صحيح مسلم (٤/ ١٧٨١)

(٥) صحيح مسلم (١/ ١٢٥)

(٦) صحيح مسلم (٣/ ١٤٦١) والحطمة: هُوَ الْعَنِيفُ برعايَة الْإِبِلِ فِي السَّوْق وَالْإِيرَادِ والإصْدار، ويُلْقِي بَعْضَهَا عَلَى بَعْضٍ، ويَعْسِفُها. ضَرَبه مَثَلا لِوَالِي السُّوء: النهاية في غريب الحديث والأثر (١/ ٤٠٢)

(٧) صحيح مسلم (١/ ٣٢٣)

على بعض مضامينها وتفصيلاتها الجزئية، والتي قد يكون لها ما يبررها بسبب الملابسات المصاحبة، والبيئة المحيطة، إلا أنها وبرغم ذلك كله استطاعت تأمين حاضرها ومستقبلها من المصادرة والتجيير لشخص أو حزب أو طائفة، بشكل فج وسافر كما هو الغالب في عالمنا العربي والإسلامي للأسف الشديد، وهذا المفهوم لم يكن ديننا الإسلامي في منأى عنه أو على الحياد في قول كلمته فيه، من الوهلة الأولى، بحجة أن هذا أمر من أمور الدنيا والناس أعلم بأمور دنياهم، حتى ربطه بالدين ورتب عليه الثواب والعقاب الكبيرين في الدنيا والآخرة، وجعل من الصلاة مثالا عليه وملهما له، يتجدد في شعور المسلم بتجددها، ويلحظ معالمه في مختلف أحوالها، فلا مكان للمغالبة والسطو أو التحايل والالتفاف على إمامة المسلمين كما أنه كذلك في محاريب صلاتهم ثنائية متناغمة يستوي الجرم داخل الصلاة وخارجها: (ثلاثة لا تجاوز صلاتهم آذانهم ...قال: وإمام قوم وهم له كارهون)[1].

فإذا كان هذا جزاء مَن تقدم أفرادا لدقائق معدودة في عبادة توقيفية لا مجال للرأي أو الزيادة أو النقص فيها ولا مصلحة لطرف دون آخر من ورائها، فما بالك بمن حكم شعبا وكبت على أنفاسهم سنين طويلة، فيما هو من شأنهم وأخطر وأخص خصوصياتهم وفي أمر يتحكم فيه برقابهم وأمنهم واستقرارهم، وحاضرهم ومستقبلهم، يتربع على سُدةٍ يتحكم فيها بمصالح دينهم ودنياهم؛ فتنشأ أجيال وتموت أخرى ولا يعرفون سواه، أيترك الشارع كل هذه القضايا دون أن يقول كلمته، أم هل يعقل أن يرض الشارع الحكيم بأن يحكم رقاب الناس ويصل إلى كل مفاصل حياتهم حاكم بدون رضاهم ولا اختيار منهم، ممن لا دين له ولا خلاق، ولا كفاءة له ولا أهلية لا في الذات ولا في الصفات، من أمانة في الدين، وحصافة في العقل، وقوة في الحق، إلا قوة البطش ودهاء الحيل في حبك فتائل الخداع والمكر، فلا أشك مثقال ذرة أن هذا لا يرضى به من عنده مزعة عقل، فضلا صاحب الشرع الحكيم: (خِيَارُ أَئِمَّتِكُمُ الَّذِينَ تُحِبُّونَهُمْ وَيُحِبُّونَكُمْ، وَيُصَلُّونَ عَلَيْكُمْ وَتُصَلُّونَ عَلَيْهِمْ، وَشِرَارُ أَئِمَّتِكُمُ الَّذِينَ تُبْغِضُونَهُمْ وَيُبْغِضُونَكُمْ، وَتَلْعَنُونَهُمْ وَيَلْعَنُونَكُمْ)[2]. ولا غرو أن يكون جرمهم من أشد الإجرام لأنهم ذهبوا بذنبهم وذنب من ولاهم الله أمرهم: (أَشَدُّ النَّاسِ عَذَابًا اثْنَانِ: امْرَأَةٌ عَصَتْ زَوْجَهَا، وَإِمَامُ قَوْمٍ وَهُمْ لَهُ كَارِهُونَ "قال الراوي "إِنَّمَا عَنَى بِهَذَا الْأَئِمَّةَ الظَّلَمَةَ»[3]، ويشترك في هذا الجرم المعيَّن والمعيّن، من تولى ومن ساعد على توليته: (مَنِ اسْتَعْمَلَ رَجُلًا مِنْ عِصَابَةٍ وَفِي تِلْكَ الْعِصَابَةِ مَنْ هُوَ أَرْضَى لِلَّهِ مِنْهُ فَقَدْ خَانَ اللَّهَ وخانَ

(١) سنن الترمذي ت شاكر (٢/ ١٩٣) حسنه الالباني

(٢) صحيح مسلم (٣/ ١٤٨١)

(٣) سنن الترمذي ت شاكر (٢/ ١٩٣) صححه الألباني

رَسُولَهُ وخانَ الْمُؤْمِنِينَ)[1].

أما الأهلية والكفاءة الموضوعية فإن الإجادة في تلاوة كتابه هي المعتبرة في إمامة الصلاة: (يؤمُّ القومَ أقرؤُهم لكتابِ الله)[2]. وأما في معايش الناس وأمور دنياهم فالأمر مختلف تماما، فقد قال ﷺ لأحد عباد أصحابه وزهاد أمته: (إِنَّهَا أَمَانَةٌ، وَخِزْيٌ، وَنَدَامَةٌ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِلَّا مَنْ أَخَذَهَا بِحَقِّهَا وَأَدَّى الَّذِي عَلَيْهِ فِيهَا)[3]، فلا يولى في إمامة الدنيا إلا من كان أهلا لها وجديرا بها، ولكل زمان رجاله، ولكل ميدان فرسانه، ففي ميدان العمل والبناء: **{إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الأَمِين}[القصص:٢٦]**. وفي ميدان القيادة والإدارة: **{قَالَ اجْعَلْنِي عَلَى خَزَآئِنِ الأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيم}[يوسف:٥٥]**. فإذا وسد الأمر لغير أهله فانتظر الساعة، وإن الخلل الذي طرأ على كثير من محاريب صلاة الناس، ليلقي بظلاله على كثير من جوانب مسؤولياتهم الحياتية، بترك الإمامة لصغار القوم وضعفائهم؛ أو لمن ليس أهلا لها، إلا بمعيار القرابة أو الوساطة، والجرأة على تقدم الصفوف دون تهيب ودون مراعاة حق الإمامة وما يقتضيه المقام من معرفة بما تبرأ به الذمة وما تستتبعه الإمامة من أحكام وأمانة؛ كل هذا ليحكي واقعهم المرير الذي استبد فيه أقوام بمقاليد حياة الناس، بالتسلط على رقابهم بالقوة والإكراه، فاتخذوا عباد الله خولا، ومال الله دولا، وكتاب الله دغلا، والأمانة مغنما، ومصالح العباد هملا، فامتهنوا شعوبهم، يتوارثون حكم رقابهم كابرا عن كابر، كما يتوارث أرباب القطيع خرفانهم، دون أن يكون لهذه الملايين أي وزن في اعتبار رضاهم واختيارهم، وإن خيروا فبين عصا موسى أو سحر فرعون، مع أن الأمر لا يعدو أن يكون تمثيل الجماعة بالقيام بما هو مناط بها بالجملة، من مسؤوليات، وإسقاط ما يجب على مجموعها من تكاليف وواجبات، يوم القيامة يكون عليهم وزرها إن قصروا وخانوا، ولهم أجرها إن وفوا وأحسنوا: (إنها أمانة وإنها يوم القيامة خزي وندامة).

ولا يقف الأمر في الفكر الإسلامي عند مجرد اختيار الحاكم حتى يكون لهم وجود وقول فيما يحكمهم به، وهذا هو مقتضى الأمر الإلهي: **{وَشَاوِرْهُمْ فِي الأَمْرِ}[آل عمران:١٥٩]**، فلا معنى ولا قيمة للشورى إن كانت مقصورة على اختيار الحاكم فحسب، ثم يترك له الحبل على الغارب يخبط في الحكم خبط عشواء، بل هو مأطور بحكم الله وشرعه، ومأمور-في كل ما أشكل عليه الأمر فيه- بالرجوع إلى أهل الاختصاص لاستنطاق الحكم الشرعي له، والاهتداء إلى ما هو أرضى لله وأنفع للناس، ولن يصل المجتمع إلى هذا المستوى من الممارسة حتى يتربى عليها الصغير ويشيب عليها الكبير، ويتعهدها

---

(١) المستدرك على الصحيحين للحاكم (٤/ ١٠٤) وقال صحيح الاسناد

(٢) صحيح مسلم (١/ ٤٦٥)

(٣) صحيح : مسند احمد (٣٥/ ٤٠٤)

أرباب الفكر بالتوعية، بالتعزيز والتنوير حتى يخلق وعي مجتمعي، وينشأ جيل متشرب بهذه القيم ومتشبع بها، يستحيل أن يترزق في عزته وكرامته، أو يساوم في أعز خصائصه وإنسانيته، ويجرم العبث بحاضره ومستقبله.

إن اغتصاب السلطة وانتزاعها من أربابها ومصدر استحقاقها: لهو من أكبر وأشد أنواع الاختلاسات والغصب، ومن غل يأت بما غل يوم القيامة. ولا حيلة شرعية ولا سبيل آمن للوصول إليها إلا برضا الشعوب ومحض إرادتهم، وما أروع اقتران وسيلة الحكم بشعيرة الصلاة في نسق واحد في قوله تعالى: **{وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلاَةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُون}[الشورى:٣٨]** وهذا الاقتران نتيجة لعظم الشبه بينهما في مظهرهما وجوهرهما ومقاصدهما وآليتهما. ففي الصلاة جماع صلاح دين الناس، وفي الحكم جماع صلاح دنياهم.

ويلاحظ أن الأمر بإقامة الصلاة ورد بصورته المباشرة، و لكنه في الحكم وإدارة شؤون الحياة اكتفى بذكر وسيلة ذلك، والتي هي الشورى، وذكره بصيغة المصدر ليخرج مخرج الحكاية عن الحال الذي ينبغي يكونوا عليه، والشأن الغالب عليهم، ووصفهم المميز لهم عن غيرهم: (وأمرهم شورى بينهم)، ويلاحظ أن القرآن لم يتطرق لنظام الحكم وتحديد صورته المتعينة: (رئاسي- برلماني- جمهوري- ملكي- مركزي- اللامركزي- اتحادي- فدرالي.. الخ). بل ترك الناس وما يتواطئون عليه، طالما أنه يؤدي الغرض، وتحقق التوافق بينهم عليه، وكانت آليته شورية، ومسيرة الحاكم فيه محكومة بالرقابة القانونية، ومحاطة بمناصحة الرعية، فإذا ما كان الحاكم يقصد الحق، ويعمل به، فلا يضر حكم عشرا أم حكم دهرا، بل إن بقاءه خير من خلعه وعزله، فإن حاد كان أمر الشعب بأيديهم عزلوه من ساعته دون احتياج لانتظار استيفاء الفترة وانتهاء المدة، بل تسقط شرعيته من حينه، وهذا ما يفهم من قوله: (وَأَنْ لاَ نُنَازِعَ الأَمْرَ أَهْلَهُ، إِلَّا أَنْ تَرَوْا كُفْرًا بَوَاحًا، عِنْدَكُمْ مِنَ اللَّهِ فِيهِ بُرْهَانٌ)[1]، أي: لا يلتف على الحكام، من كان منهم أهلا للبقاء، ولا حاد ولا خان، فمن بدل منهم أو غيّر فالشعب ممثلا بأهل الحل والعقد مأمورون بقوله: **{وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً فَانبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَى سَوَاء إِنَّ اللّهَ لاَ يُحِبُّ الخَائِنِين}[الأنفال:٥٨]**، وجاءت "قوم" هنا نكرة؛ لتفيد العموم، فالخيانة والتبديل عندها وعندها فقط يستدعي الخروج على الحاكم ونزع يد الطاعة، بإزاحته عن كرسي السلطة. ولا يمنع هذا أن تكون الولاية محدودة بزمن فإذا ما انتهت مدته وانقضت فترته صار كآحاد الناس: **{فَأَتِمُّواْ إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَى مُدَّتِهِمْ إِنَّ اللّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِين}[التوبة: ٤]**، فإن التف الحاكم أو احتال صار هو من نزع يده عن الطاعة وخرج عن الجماعة ولا يمكن يغلب فرد شعب ما لم تتنازل الجماعة عن حقها أو تتخلى عن واجبها.

وكلا الآيتين الأخيرتين وردتا في سياق الحديث عن عهود المسلمين مع المشركين؛ لكن العبرة

---

(١) صحيح البخاري (٩/ ٤٧)

بعموم اللفظ، بل في حق المسلمين مع بعضهم ستكون أوجب وأولى، وخاصة أن مضمونهما في المبادئ والقيم، وهذا في ميزان الإسلام أمر ثابت لا يتبدل ولا يتغير بتبدل المصالح أو الأفراد، كما هو معهود في سياسات أهل الأرض الانتهازية؛ ولذلك جاء التذييل في كلا الآيتين بالمحبة، وهي أمور قِيَمِيَة خبرية، لا يدخلها النسخ كما يدخل الأحكام، ففي الأولى بنفيها، والثانية بإثباتها، وما ثمرة التكليف إلا أن يظفر العبد بمحبة الله، وأن لا يخسر فواتها ويحرم رضاه.

المطلب الرابع / لا جماعة بدون وحدة والتحام:

إن تلاحم الصفوف وإتمامها، وسد الخلل وتسويتها: لَمِن تمام الصلاة ومن كمال إقامتها: (أَلَا تَصُفُّونَ كَمَا تَصُفُّ الْمَلَائِكَةُ عِنْدَ رَبِّهَا ؟ فَقُلْنَا: يَا رَسُولَ اللَّهِ وَكَيْفَ تَصُفُّ الْمَلَائِكَةُ عِنْدَ رَبِّهَا ؟ قَالَ: (يُتِمُّونَ الصُّفُوفَ الْأُوَلَ وَيَتَرَاصُّونَ فِي الصَّفِّ)[1].

فجعل صورة للملائكة وهي صافة بين يدي المولى سبحانه تسبح بحمده وتقدس له المثل الأعلى للمؤمنين: **{وَإِنَّا لَنَحْنُ الصَّافُّون وَإِنَّا لَنَحْنُ الْمُسَبِّحُون}. [الصافات:١٦٥-١٦٤]**. ولمكانة هذا الاصطفاف والتراص سمى به سورتين من سور القرآن: (الصف، والصافات)، فإذا كان هذا هو ما حضنا عليه ورغبنا فيه حال التسبيح والصلاة، فهو عين ما يرضاه الله للمؤمنين ويحب أن يكونوا عليه ظاهرا وباطنا، قلبا وقالبا في كل ميادين الحياة، بل وفي أشد المواقف وأصعب المواطن، مواطن الحرب والقتال، فما دونها من باب أولى: **{إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنيَانٌ مَّرْصُوص}[الصف:٤]**. ولذلك قبل أن يفرض القتال جعل الله الصلاة قنطرة انتظار ومحطة اختبار، حبس عندها المسلمون الأوائل قبل أن يفرض عليهم القتال، وقد سألوه لينظر الله كيف يكون حالهم في الصلاة؛ ليستبين مدى استعداد النفوس وتهيؤ القلوب وانضباط الصفوف واستجابة الجنود في العرض بين يديه قبل السير بهم في دروب الحياة، وقبل التحول بهم إلى ميادين الموت، فلما كتب عليهم القتال، لم يثبت إلا من أقام الصلاة بحقها، فأحدثت فيهم تغييرا في المشاعر والفكر والتصور، وتمكن من قلوبهم حب الطاعة وإيثار الله والدار الآخرة، ولم ينشغلوا عن الله بالدنيا ومغرياتها، ولم يلههم عن العبادة فتنتها وشهواتها، خشوعهم وذلهم بين يديه قد أكسبهم عزة في النفس وصلابة في الحق، فلم يخشوا أحدا إلا الله، ولم يهنوا لما أصابهم في سبيل الله. وفي المقابل تولى فريق من أهل العجلة وقليلي الروية والنظر، وعديمي البصيرة والبصر، ممن لم يكن لصلاتهم في حياتهم أثرا، أو يحدث الله لهم بها ذكرا: **{أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّواْ أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُواْ الصَّلاَةَ وَآتُواْ الزَّكَاةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً وَقَالُواْ رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا الْقِتَالَ لَوْلا أَخَّرْتَنَا إِلَى أَجَلٍ**

---

(١) صحيح مسلم (١/ ٣٢٢)

قَرِيبٍ قُلْ مَتَاعُ الدَّنْيَا قَلِيلٌ وَالآخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ اتَّقَى وَلاَ تُظْلَمُونَ فَتِيلا}[النساء:٧٧].

وبهذا ندرك سر اهتمامه ﷺ بتسوية الصفوف وعنايته بتعديلها وتقويمها قبل كل صلاة، بقوله وفعله، حتى عقل الناس عنه فالتصقت الأعقاب بالأعقاب، والتف الكتف بالكتف كدلالة رمزية لما يجدر أن يكون عليه أمرهم من التعاضد والتآزر في أداء التكاليف، فيتعاضد العضد بالعضد ويتظافر الساعد بالساعد، ويضرب الكف بالكف، وهذه الصورة جسدتها الصلاة أيما تجسيد :(كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يُسَوِّي صُفُوفَنَا حَتَّى كَأَنَّمَا يُسَوِّي بِهَا الْقِدَاحَ ..)[(١)] . فإذا كان التلاحم بهذه الأهمية والمكانة في حالة الصلاة فهو- لعمري- في أرض القتال أشد ضرورة وأعظم أهمية، فمن لم تحسن استقامته في الصلاة فلن يستقيم له حال في أي منحى من مناحي الحياة، ومن لم ينتظم مقامه مع إخوانه بين يدي الله فلن ينتظم له حال في أي مقام، فكانت الصلاة هي ميدان التدريب وبداية المسار، فالصلاة تصنع في أصحابها حالة من التلاحم -كالجسد الواحد- في صورة لا ينكر أحد قدر أثرها في تقارب القلوب وتلاحم النفوس، وإزالة أسباب الوحشة والنفرة فيما بينهم، والتهيؤ لمعالجة اكباد الحياة بروح الجماعة وبقلب الرجل الواحد: (كَانَ أَحَدُنَا يُلْزِقُ مَنْكِبَهُ بِمَنْكِبِ صَاحِبِهِ، وَقَدَمَهُ بِقَدَمِهِ)[(٢)] ، ولو أن أحدا عملها اليوم لنفر منه صاحبه نفر البغل الشموس، فقطعوا صفوفهم فتقطت أواصرهم، وتخلخلت صفوفهم فتضعضعت علاقاتهم وتنافرت قلوبهم، وفي صلاتهم بداية الخلل: (سُدّوا الخَلَلَ، ...من وصل صفّاً وصله الله، ومن قطع صفّا قطعه الله)[(٣)] . ولو أعادوا تموضعهم في صفوف الصلاة كما أمرهم الله، ودنت أجسادهم من بعضهم، لتآلفت على طاعة الله قلوبهم، ولصحت صلاتهم، ولسلمت لهم وحدتهم، وتعانقت على طاعة الله قلوبهم، ولما خفروا ذمة الله في عهودهم، ولأدوا حقوق بعضهم، ولذابت فوارق العنصرية والجاهلية فيما بينهم، ولما رأى أحدهم لنفسه فضلا على أحد، ولا أنزل أحدهم نفسه منزلة فوق غيره من المنازل، ولرعوا وصية رسول الله لهم: (الْمُسْلِمُ أَخُو الْمُسْلِمِ لَا يَظْلِمُهُ وَلَا يَخْذُلُهُ وَلَا يَحْقِرُهُ التَّقْوَى هَاهُنَا" وَيُشِيرُ إِلَى صَدْرِهِ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ، "بِحَسْبِ امْرِئٍ مِن الشَّرِّ أَنْ يَحْقِرَ أَخَاهُ الْمُسْلِمَ كُلُّ الْمُسْلِمِ عَلَى الْمُسْلِمِ حَرَامٌ دَمُهُ وَمَالُهُ وَعِرْضُهُ")[(٤)] .

هذا" وإن تحركت هذه الصفوف فحركة جماعية لا أحد يملك أن يتقدم فيها أو يتأخر على غيره: **{وَأَقِيمُواْ الصَّلاَةَ وَآتُواْ الزَّكَاةَ وَارْكَعُواْ مَعَ الرَّاكِعِينَ}[البقرة:٤٣]**. ومن شذ وخالف وتعمد الإخلال

---

(١) صحيح مسلم (١/ ٣٢٤)

(٢) صحيح البخاري (١/ ١٤٦)

(٣) صحيح أبي داود (٣/ ٢٤٣)

(٤) رواه مسلم (١٩٨٦/٤)

بالصلاة في هذا وفي مظهرها العام، ولم يهتد لحكمة ربه في هذا الموضع من الوحدة والانسجام، فممسوخ قلبه وإن كان الشكل شكل إنسان، ولفرط غباءه وعرض قفاه، ولعدم تفهمه لحكمة ربه في الصلاة، كادت صورته أن تتطابق مع قلبه وعقله، ويلحق قالبه بقلبه فقال الرسول: (أَمَا يَخْشَى أَحَدُكُمْ – أَوْ: لاَ يَخْشَى أَحَدُكُمْ – إِذَا رَفَعَ رَأْسَهُ قَبْلَ الإِمَامِ، أَنْ يَجْعَلَ اللَّهُ رَأْسَهُ رَأْسَ حِمَارٍ، أَوْ يَجْعَلَ اللَّهُ صُورَتَهُ صُورَةَ حِمَارٍ)[1].

ثم إن لهذا التلاحم والتناغم وهذا الالتئام والتوافق أثره في تشييد بنيان المجتمع، وتمتين رابطة الأخوة بين أفراده، وحمايتها من التصدع والاختراق: (الْمُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِ كَالْبُنْيَانِ يَشُدُّ بَعْضُهُ بَعْضًا)[2].

المطلب الخامس/ الملاينة والمطاوعة ضرورة للجماعة والاجتماع:

مما لا شك فيه أن من خلال الجماعة والاجتماع تبرز ضرورة المطاوعة والموافقة، وأهمية الرفق والملاينة فيما بين أفرادها، وقد جاء الأمر بذلك في الصلاة كتعزيز تعبدي بين يدي الله يتمرس عليه العباد: (لِيَئُوا بِأَيْدِي إِخْوَانِكُم)[3]، كما نهي عن المخالفة فيها ظاهرا وباطنا فقال: (وَلا تَخْتَلِفُوا فَتَخْتَلِفَ قُلُوبُكُمْ)[4]. وإنك لتلحظ قدر ما توفره الصلاة من صور التوافق والانسجام سواء في مواضع القيام بلا تقدم أو تأخر لأحد على آخر، ودون ارتفاع أو انخفاض لإمام أو مأموم، على صعيد واحد يستوي فيهم الشريف والوضيع، وكذلك في حركة المجموع، دون سبق أو تأخر لأحد على أحد، تكبير الإمام هي الإشارة التي لها يخضع الجميع، فبأمر الله حركتهم وسكونهم وشروعهم وانصرافهم، فمن تقدم في دخول أو خروج بطلت صلاته، وهذا بدوره ينعكس أثره في حياتهم، يعيشونه واقعا، ويمارسونه سلوكا يوميا. استجابة لوصية رسولهم الكريم: (يَسِّرَا وَلاَ تُعَسِّرَا، وَبَشِّرَا وَلاَ تُنَفِّرَا، وَتَطَاوَعَا وَلاَ تَخْتَلِفَا)[5].

فالصلاة كما أنها مظهر من مظاهر العبودية لرب العالمين فهي كذلك صورة من صور التعايش والتآخي الصادق، والترابط والتلاحم الوثيق بين المسلمين. وغالِب مصالح العباد لا تتمّ إلا بالاتفاق، ومتى ما وقع الاختلاف فاتهم من المصالح بقدر اختلافهم فيها، إن لم يكن اختلافهم سببا في ارتفاعها وفواتها، عنهم بالكلية إن جرهم اختلافهم على العداوة في الدين، وحملتهم عداوتهم أن يفسدوا في الأرض ويقطعوا أرحامهم، ففي ذلك ضرر محض وشر مستطير: (ثلاث مهلكات: هوى متبع وشح مطاع

---

(١) صحيح البخاري (١/ ١٤٠)

(٢) صحيح البخاري (٨/ ١٢) ، صحيح مسلم (٤/ ١٩٩٩)

(٣) السلسلة الصحيحة عن ابن عمر مرفوعا (٦/ ٧٦)

(٤) صحيح مسلم (١/ ٣٢٣)

(٥) صحيح البخاري (٤/ ٦٥)، صحيح مسلم (٣/ ١٣٥٩)

وإعجاب المرء بنفسه)[1]. **{وَلاَ تَكُونُواْ كَالَّذِينَ تَفَرَّقُواْ وَاخْتَلَفُواْ مِن بَعْدِ مَا جَاءهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُوْلَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيم}[آل عمران:١٠٥].**

والشيطان كما ينفذ ويخترق صفوف الصلاة مستغلا تخلخلها وانقطاعها؛ فيحدث وحشة في القلوب وتناكرا في الوجوه، ويعود على الصلاة بالنقص أو الفساد: (رَاصُّوا صُفُوفَكُمْ وَقَارِبُوا بَيْنَهَا وَحَاذُوا بَيْنَ الْأَعْنَاق فوالذي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ إِنِّي لأَرَى الشَّيْطَانَ يَدْخُلُ من خلل الصَّفّ كَأَنَّهُ الْحَذفُ)[2]، كذاك الحال عند اختلاف الجماعة وتبعثر كلمتها، وتغير الوجوه وتنافرها، وتعادي الفصائل وتناحرها، تفقد الأمة هيبتها وتسقط في عين ربها قبل عدوها، فيتخلى الله عنها، ويسلمها إلى ضعف وهوان: **{وَلاَ تَنَازَعُواْ فَتَفْشَلُواْ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ}[الأنفال:٤٦]**. إنه لا مكان للأنانية، والأثرة الفردية القاصرة: (لاَ يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ، حَتَّى يُحِبَّ لِأَخِيهِ مَا يُحِبُّ لِنَفْسِهِ)[3]. كما أنه لا مجال لاعتزال الناس والانكفاء على الذات ومصالحها، بعيدا عن الآم الناس، ومشاركتهم أفراحهم وأتراحهم: (لَا صَلَاةَ لِفَرْدٍ خَلْفَ الصَّفِّ وَحْدَهُ)[4]. ومن شذ شذ في النار، وفي الدنيا افترسته الذئاب، وكان طعمة سائغة للشيطان، وعرضة للبطش والعدوان: (مَا مِنْ ثَلَاثَةٍ فِي قَرْيَةٍ وَلَا بَدْوٍ لَا تُقَامُ فِيهِمُ الصَّلَاةُ إِلَّا قَدِ اسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ الشَّيْطَانُ فَعَلَيْكَ بِالْجَمَاعَةِ فَإِنَّمَا يَأْكُلُ الذِّئْبُ الْقَاصِيَةَ)[5].

ما لم فالداء العضال، والمحق التام الذي لا تجدي معه الرتوش ومسكنات الآلام؛ ما لم يراجعوا دينهم، ويتفقدوا قلوبهم تجاه بعضهم، ويصلحوا حالهم مع ربهم: (دَبَّ إِلَيْكُمْ دَاءُ الأُمَمِ قَبْلَكُمْ: الحَسَدُ وَالبَغْضَاءُ، هِيَ الحَالِقَةُ، لَا أَقُولُ تَحْلِقُ الشَّعَرَ وَلَكِنْ تَحْلِقُ الدِّينَ)[6].

وبقدر تعطف المسلمين وتقاربهم من بعضهم، ولين جانبهم فيما بينهم، تكون منزلتهم عند الله، وبقدر شدتهم في الحق تكون هيبتهم في عيون أعدائهم، والعكس بالعكس، استأسد المسلمون على بعضهم فسلط الله عليهم من كسر هيبتهم، وأضاع عزتهم ودينهم ودنياهم فتحققت فيهم نبوءة المصطفى: "الحالقة"، بأن تسلل الأعداء من فجوات قلوبهم، وتبعثرات صفوفهم، فنشبوا مخالب الغدر في ظهورهم،

---

(١) صحيح الجامع الصغير وزيادته (١/ ٥٨٣)

(٢) الأحاديث المختارة (٧/ ٤١)، مسند احمد (٢١/ ٤١٩) بإسناد صحيح، والحَذفَ: ضَرْبٌ من الغَنَم السُّود الصِّغار، واحدها حَذَفة. العين (٣/ ٢٠٢)

(٣) صحيح البخاري (١/ ١٢)، صحيح مسلم (١/ ٦٧)

(٤) صحيح ابن حبان (٥/ ٥٨١)

(٥) مشكاة المصابيح (١/ ٣٣٥) صحيح

(٦) سنن الترمذي ت شاكر (٤/ ٦٦٤) حسنه الألباني

وشبوا نار العداوة في صدورهم، وسلطوا بعضهم على بعض، وأطلقوا لسيوفهم تضرب رقاب بعض، فأفنوا أنفسهم بأيديهم، وكفوا أعداءهم مؤونة قتالهم؛ فاستبيحت البيضة، ونهبت الخيرات. إنها نهاية مؤلمة وهزيمة نكراء ومحق شامل في شتى الميادين، ومبدأ الأمر اختلاف الصف وتناكر الوجوه في الصلاة، فتمخض واقع لم يجد له نبينا الكريم توصيفا غير قوله: (**لاَ تَرْجِعُوا بَعْدِي كُفَّارًا، يَضْرِبُ بَعْضُكُمْ رِقَابَ بَعْضٍ**)[1]، فسمى أصحابه كفارا مع علمه بصدق إيمانهم، وما ذلك إلا لفداحة صنيعهم؛ أن بلغ بهم الحال أن يعملوا سيوف الكافرين في رقاب بعضهم: **{وَدَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُم مَّيْلَةً وَاحِدَةً}[النساء:١٠٢]**.

فلما تحقق المقصود وتساوت النتائج، فليسمى بعضهم بأسماء بعض، فما تغني عنا الأسماء إذا تشابهت الفعال، فلم يفرق أن يكونوا بالأصالة أم بالوكالة؛ طالما تساوت النتائج والأفعال، واستهانوا بالدماء، واستباحوا الحرمات، فانفرط عقدهم، وانتظم عقد الكافرين، وكانوا أداة طيعة لغيرهم، وسيفا قاطعا لتنفيذ رغبة الكافرين في بعضهم: **{إِنَّ الْكَافِرِينَ كَانُواْ لَكُمْ عَدُوًّا مُّبِينًا} [النساء:١٠١]**.

المطلب السادس/ شرط القبلة وسلامة الوجهة:

استقبال القبلة شرط لصحة الصلاة، وهي نوعان: قبلة مادية يتوجه إليها المسلم بجسده، وقبلة معنوية يتوجه إليها المسلم بقلبه، فقبلة البدن بتولية الوجه شطر المسجد الحرام: **{فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّواْ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ}[البقرة:١٤٤]**. وقبلة القلب بخلوص التوجه إليه سبحانه، وإفراده بالعبادة دون سواه: **{وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَاْ مِنَ الْمُشْرِكِين}[الأنعام:٧٩]**.

ويؤكد ذلك المصلي بلسان حاله ومقاله مفتتح كل صلاة، كذلك يجب أن تكون الوجهة للإسلام في معترك الحياة، وخلوص الولاء لجماعة المسلمين خارج الصلاة، وفي ذلك منعتها وسياج أمنها، وسر قوتها وعصيها على أعدائها، لا تفرقة بين وجهة الصلاة ووجهة الحياة كما قال سبحانه: **{قُلْ إِنَّ صَلاَتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلّهِ رَبِّ الْعَالَمِين}[الأنعام:١٦٢]**.

والصلاة هي معقد الإخاء، ومفصل الولاء والبراء، وهي مركز الالتقاء ونقطة الافتراق: **{إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُواْ الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاَةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُون}[المائدة:٥٥]**. وتاركها مبعد ومقطوع، ومن الولاء محروم ومخذول: (العَهْدُ الَّذِي بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمُ الصَّلَاةُ، فَمَنْ تَرَكَهَا فَقَدْ كَفَرَ)[2].

---

(١) صحيح البخاري (٥/ ١٧٧)

(٢) سنن الترمذي (٥/ ١٤) صححه الالباني

ووجهة الجسد تبع لوجهة القلب، فمن كان قلبه صادقا في وجهته إلى الله فلن يتيمم وجهه إلا صوب محبوبه، وشطر ما يحبه حبيبه، ويمتنع شرعا وعقلا أن يجتمع في قلب مؤمن حب الله وحب عدوه، إلا إذا لم يكن القلب قد امتلأ بحبه؛ فعندها سيجد غيره له في القلب متسعا، والله قد يرضى الله لغيره بحب التبع: (وَأَنْ يُحِبَّ المرْءَ لاَ يُحِبُّهُ إِلَّا لِلَّهِ)[1]، لكنه لا يقبل الاشتراك في حب التضاد: **{لاَ تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءهُمْ أَوْ أَبْنَاءهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ ... أُوْلَئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلاَ إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُون}[المجادلة:٢٢]**، ومن لم تحمله صلاته على كن المودة للمؤمنين، وصدق موالاتهم، ميولا قلبيا بتمام المحبة، وميولا فعليا بالتحيز الكامل بالمواساة وبذل المعروف، والنصرة في الدين، فما أقام الصلاة، ولا معنى بعد ذلك أين ولى وجهه، وأنى كانت وجهته شرّقت أم غرّبت: **{لَّيْسَ الْبِرَّ أَن تُوَلُّواْ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَالْمَلآئِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّآئِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُواْ وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاء والضَّرَّاء وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُون}[البقرة:١٧٧]**، وأوثق أواصر الإيمان وأمتنها تكمن في تحقيق هذه المودة القلبية: (أوثق عرى الإيمان الحب في الله والبغض في الله)[2]، والتي بها حفظ الدين وحفظ جماعة المسلمين، ومن هنا ناسب اقترانها بالصلاة كمفردة من مفردات الإيمان وصفة من صفات المؤمنين المنجية من الهلاك المستوجب لرحمة الله: **{وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاء بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلاَةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللّهَ وَرَسُولَهُ أُوْلَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللّهُ إِنَّ اللّهَ عَزِيزٌ حَكِيم}[التوبة:٧١]**. لقد علمتنا صلاة الخوف مبدأ السببية، وأنه ليس لأحد عند الله وجاهة وما وعد الله كسولا بسيادة ولا مفرطا بخير؛ فعلى الجماعة أن تحمي نفسها بنفسها، حتى وهي تصلي عليها أن لا تفرط بالأخذ بالأسباب فلن تنزل ملائكة تحميها: **{وَإِذَا كُنتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ الصَّلاَةَ فَلْتَقُمْ طَآئِفَةٌ مِّنْهُم مَّعَكَ وَلْيَأْخُذُواْ أَسْلِحَتَهُمْ فَإِذَا سَجَدُواْ فَلْيَكُونُواْ مِن وَرَآئِكُمْ وَلْتَأْتِ طَآئِفَةٌ أُخْرَى لَمْ يُصَلُّواْ فَلْيُصَلُّواْ مَعَكَ وَلْيَأْخُذُواْ حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ}[النساء:١٠٢]**. فإذا كانت الجماعة حال الصلاة، وبحضرة نبي الرحمة ﷺ، مأمورة بأن تلتف حول بعضها، وتتولى حراسة بيضتها، وتحمي حوزتها، وتصون ممتلكاتها، وتفتح عيونها على عدتها وعتادها، ففي غير الصلاة من باب أولى، وهذا يكشف لنا قدر ما فرطنا فيه من تلاحم وتسليح وثروات، ولو صدقنا الله ونصحنا لأنفسنا لكفتنا هذه الصلاة وآياتها عظة

---

(١) صحيح البخاري (١/ ١٢)

(٢) تحقيق الإيمان لابن تيمية (ص: ١١٩)

وعبرة.

المطلب السابع/ القرآن لسان الصلاة ودستور الحياة:

إن الصلاة هي تجديد مستمر للعهد مع دستور المسلمين وتوثيق دائم للارتباط به، فلا تخلوا ركعة من ركعاتها عن قراءة ما تيسر منه، من ذلك ما هو متعين وواجب، ومنه ما هو تطوع ومسنون، ولا تصح صلاة بدون ذلك: (مَنْ صَلَّى صَلاةً لَمْ يَقْرَأْ فِيهَا بِفَاتِحَةِ الْكِتَابِ فَهِيَ خِدَاجٌ فَهِيَ خِدَاجٌ غَيْرُ تَمَامٍ)[1]، وقد ارتبطت الصلاة بالقرآن، والقرآن بالصلاة في أكثر من موضع، مما يعزز الصلة بينهما ويوثق ارتباطهما ببعضهما، ولم يكن ذلك لأجل إثبات وجوب قراءته فيها فحسب، فهذا يمكن إثباته بما هو أقل من ذلك بكثير؛ ولكن ليعطي انطباعا عاما بأن هذا الكتاب هو عهد الله إلى خلقه، وحجته على عباده، وهو حبله المتين وصراطه المستقيم، فناسب تجدد عهدهم به في كل وقت وحين، وخصت الصلاة به؛ لأنها أهم ركن من أركان الإسلام، ويتكرر تعهد المسلم بها في اليوم خمس مرات يقرؤه في كل ركعة منها، بمعدل سبعة عشر مرة كأقل تقدير، بما يشعر بمكانته، وأهميته في حياة المسلم، بل هو قسيم المؤمن من صلاته، فقد قسم الله الصلاة نصفين، نصفها الأول: حق الله على العباد، من حمد وثناء وتمجيد له سبحانه، والثاني: حق للعباد على الله أن يهديهم لالتزام كتابه الكريم، والسير على هدي صراطه المستقيم، ففي الحديث القدسي: (قَسَمْتُ الصَّلَاةَ بَيْنِي وَبَيْنَ عَبْدِي نِصْفَيْنِ، وَلِعَبْدِي مَا سَأَلَ، ..... فَإِذَا قَالَ: {اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ}قَالَ: هَذَا لِعَبْدِي وَلِعَبْدِي مَا سَأَلَ)[2].

هذا" ومن الأهمية الإشارة إلى أن حاجة المسلم لهذه الهداية لا تتعلق بهدايته وحاجته لها داخل صلاته، بقدر ما هو طلب لما بعدها؛ وذلك لحاجته الملحة وافتقاره الدائم لهدايات كتابه الكريم، واستبانة طريقه القويم في شتى نواحي الحياة: **{قَالَ اهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلاَ يَضِلُّ وَلاَ يَشْقَى}[طه:١٢٣]**.

والقرآن قرين الصلاة كما أنه أحد أركانها فلا تكتمل صلاة عبد إلا به، وقد تنوعت صور ارتباط القرآن بالصلاة واقترانه بها في صور عديدة، وشواهد هذا الارتباط كثيرة نذكر منها: **{فَاقْرَؤُوا مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ وَأَقِيمُوا الصَّلاَةَ}[المزمل:٢٠]، {أَقِمِ الصَّلاَةَ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ إِلَى غَسَقِ اللَّيْلِ وَقُرْآنَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا}[الإسراء:٧٨]، {وَالَّذِينَ يُمَسَّكُونَ بِالْكِتَابِ وَأَقَامُواْ الصَّلاَةَ إِنَّا لاَ نُضِيعُ أَجْرَ الْمُصْلِحِينَ}[الأعراف:١٧٠]، {إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ وَأَقَامُوا الصَّلاَةَ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ**

---

(١) صحيح مسلم (١/ ٢٩٧)

(٢) صحيح مسلم (١/ ٢٩٦)

سِرًّا وَعَلاَنِيَةً يَرْجُونَ تِجَارَةً لَّن تَبُور}[فاطر:٢٩]. بل قد سمى كل منهما باسم الآخر: **{وَلاَ تَجْهَرْ بِصَلاَتِكَ وَلاَ تُخَافِتْ بِهَا وَابْتَغِ بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلا}[الإسراء:١١٠]** أي: بقراءتك. **{وَقُرْآنَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا}[الإسراء:٧٨]** أي: صلاة الفجر تشهدها الملائكة[(١)].

وهذا الارتباط الوثيق بين الصلاة والقرآن هي إشارة رمزية، بالغة الأهمية بما يجب أن تكون عليه حياة الناس من ارتباط دائم واتصال مستمر، وهيمنة شاملة لهذا الكتاب، هيمنة تطال كل جوانب حياتهم، ما لم فحياتهم شقاء، وإيمانهم خداج: **{فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلاَ يَضِلُّ وَلاَ يَشْقَى}[طه:١٢٣]**.

فلا يستقيم إطلاقا أن يقف المرء دقائق معدودة بين يدي خالقه، مجددا العهد بهذا الكتاب، سائلا مولاه لنفسه الهداية إليه والقيام عليه: **{اهدِنَـا الصِّرَاطَ الْمُستَقِيم}[الفاتحة:٦]**. فإذا انفتل من صلاته نقض عهده، ونكص على عقبيه، متنكرا لسؤاله ربه هدايته إليه، ورجع القهقرى يهيم في هواه، مقدما قوانين الخلق، تحتكم إليها نفسه، وتخضع لها حياته، وتنتظم عليها معايشه، معرضا عن وصية ربه بالتزام صراطه المستقيم: **{وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلاَ تَتَّبِعُواْ السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُون}[الأنعام:١٥٣]**، مفضلا حكم البشر على حكم الله، حظه من صلاته الوهم والغرور، أن الله رضي له من الإيمان مجرد الادعاء باللسان، دون التعرض للاختبار والابتلاء وصدق الامتثال، بالطاعة والانقياد :**{أَحَسِبَ النَّاسُ أَن يُتْرَكُوا أَن يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لاَ يُفْتَنُون ولَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِين}[العنكبوت٢ :٣]**، **هذا**" ويتبع الاختبار والابتلاء التمحيص والاجتباء: **{وَلِيُمَحِّصَ اللّهُ الَّذِينَ آمَنُواْ وَيَمْحَقَ الْكَافِرِين}[آل عمران:١٤١]**.

أما من رضي أن تحكمه وتتحكم فيه أنظمة هي من وضع مخلوق مثله، يجري عليها الخطأ والصواب، وواضعوها تصيبهم الغفلة والنسيان، ويعتريهم الجهل والنقصان، فذلك للفسوق أقرب منه للإيمان: **{وَأَنِ احْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ اللّهُ وَلاَ تَتَّبِعْ أَهْوَاءهُمْ وَاحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَن بَعْضِ مَا أَنزَلَ اللّهُ إِلَيْكَ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ اللّهُ أَن يُصِيبَهُم بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ لَفَاسِقُون}[المائدة:٤٩]**. والفسوق: خروج عن نواميس الخلقة، ونشوز عن سنن الفطرة، المؤذنة بالهلاك والدمار، والرطبة إذا فسقت وخرجت عن قشرتها تلفت ولحقها العطب والفساد، ومثل ذلك متى خرج المرء عن دين ربه وشرعته ومنهجه المتكفل بحفظه وصيانته فسد حاله، وعطبت نفسه، وراجت به الأهواء، وماجت به الشبهات، وأوردته نفسه الأمارة موارد الهلكة، وألقته رياح الشهوات في مكان سحيق، فمتبع الشهوات ما انتفع بصلاة ولا فطن لحكمتها، ولا يكاد يكون بينه وبين تاركها كبير فرق:

---

(١) تفسير الطبري = جامع البيان (١٧/ ٥٢٣)

{فَخَلَفَ مِن بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلاَةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا}[مريم:٥٩]، فالآية الكريمة قضت بقضية ثنائية مزدوجة (الضياع والاتباع) فمضيع الصلاة متبع للشهوات، ومتبع الشهوات مضيع للصلاة لا محالة، ومفهوم المخالفة يقتضي أن أهل الصلاة هم أهل سنة واتباع، دستورهم ربانية قوانينه، سماوية تشريعاته، قد أحكمت آياته من لدن حكيم خبير.

ثم إن من أعظم مقاصد إنزال هذا الكتاب هي هيمنته على حياة الناس وإقامتها على أسسه ومنهاجه: **{إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللّهُ وَلاَ تَكُن لِّلْخَآئِنِينَ خَصِيمًا}[النساء:١٠٥]**، فما لم يكن هذا الكتاب هو دستور حياتهم، فلا قيمة لتمتمتهم وإقرار ولائهم له برهة في الصلاة، فإذا ما انصرفوا عنها أداروا له جنوبهم، وتنكرت له وجوههم، وهزوا له أعراضهم، واتخذوا آياته وراءهم ظهريا، وما كان الله ليمقت مخالفة القول للعمل خارج الصلاة ويرضى به داخلها: **{يا أيها الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لاَ تَفْعَلُون كَبُرَ مَقْتًا عِندَ اللَّهِ أَن تَقُولُوا مَا لاَ تَفْعَلُون}[الصف:٢:٣]**.

المطلب الثامن/ شهود وإحسان ونظام وإتقان:

يبذل العبد كامل جهده، ويفرغ وسع طاقته بأن لا يخطر بباله في صلاته أحد غير الله، فينكب على خلوص صلاته له وتخليصها من كل ما سواه، فيتملق له بإحسان وقفته بين يديه، ويتزلف إليه بالإجادة أداء الشعيرة على الوجه الذي افترضها عليه؛ ليحظى بالحظوة ويدرك الرتبة ويبلغ المنزلة، فغدت الدقة والانتظام أثر من آثار الحضور، ومظهر من مظاهر الإحسان، والنصوص الواردة في ذلك كثيرة وعديدة، لا تخطئها عين فاحصة، فلم يهتم الشارع على أمر بعد الخشوع فيها كاهتمامه بذلك، من تقويم وتصويب، واستقامة وانتظام، وتوافق وانسجام، سواء ما كان من أفعالها أو من أقوالها، أو في وقتها وزمانها، أو في مظهرها العام، فمن حيث وقتها، ضرب لها أجلا وجعل لها موعدا، وأمر بأدائها عليه: **{إِنَّ الصَّلاَةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَّوْقُوتًا}[النساء:١٠٣]**. وجعل لها أمدا وتوعد المتجاوز له والمتساهل فيه: **{فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّين الَّذِينَ هُمْ عَن صَلاَتِهِمْ سَاهُون}[الماعون:٤:٥]**. ومن الساهين فيها: المضيعين لمواعيدها، المستهينين بأوقاتها، الغافلين عن حكمها ومقاصدها: (تِلْكَ صَلَاةُ الْمُنَافِقِ، يَجْلِسُ يَرْقُبُ الشَّمْسَ حَتَّى إِذَا كَانَتْ بَيْنَ قَرْنَيِ الشَّيْطَانِ، قَامَ فَنَقَرَهَا أَرْبَعًا، لَا يَذْكُرُ اللهَ فِيهَا إِلَّا قَلِيلً)[(١)].

ومن حيث الكم والكيف، والجوهر والمضمون أمر بالإجادة والإتقان، ومجاهدة النفس حتى تبلغ درجة الإحسان فيها، فتعبد الله عبادة المشهود للعيان، ولبلوغ درجة التمام شرع لها من النوافل المقيدة والمطلقة، الراتبة وغير الراتبة؛ ما يجبر النقص ويتدارك الخلل، ويتلافى القصور، وفي هذا تذكرة للمسلم أن

---

(١) صحيح مسلم (١/ ٤٣٤)

يتقن ويحسن كل أمر أوكل إليه أو يقوم به، فيوفيه حقه، وإن زاد فذلك من تمام الإحسان، يستوي في ذلك ما كان من أمور دينه أو دنياه؛ لعموم قوله: (إن الله يحب إذا عمل أحدكم عملا أن يتقنه)[1].

هذا" ومن الإتقان عدم الاكتفاء بالواجب في إسقاط التكاليف الشرعية حتى يأتي بها المرء ويزيد عليها من جنسها تطوعا، كما أشارت إلى ذلك آيات المحسنين في الذاريات بقوله: **{إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُحْسِنِين كَانُوا قَلِيلاً مِّنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُون وَبِالأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُون وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّائِلِ وَالْمَحْرُوم}[الذاريات١٧:١٨ :١٩]**. فكل ما ذكر هنا هو من قبيل النفل – قيام الليل، الاستغفار بالسحر، الصدقة- و"الحق" هنا هو غير الزكاة الواجبة، بدليل الإطلاق؛ حيث أنه عندما تعرض للزكاة الواجبة ذكرها مقيدة بالحق المعلوم، وهو اثنين ونصف في المائة-ربع العشر- كما قال سبحانه: **{وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُوم}[المعارج:٢٤]**. فالسياقان مختلفان كما هو ظاهر، ففي المعارج ذكرت في تعداد الواجبات والتي هي من أساسيات الإيمان، من صلاة وتصديق بالآخرة وأداء الأمانة، والقيام بواجب الشهادة.. الخ، فكلها واجبات شرعية فناسب ذكر الزكاة بصفتها المحددة؛ لتستقيم في نسق الواجبات، وأما هنا فالسياق مختلف فالحديث خرج مخرج الفضل، فعدد أعمالا زائدة عما هو واجب شرعا، مما تجري مجرى النوافل من جنس ما أوجبه الله، وبالإحسان ينال المرء محبة الله: (وَمَا يَزَالُ عَبْدِي يَتَقَرَّبُ إِلَيَّ بِالنَّوَافِلِ حَتَّى أُحِبَّهُ)[2]، {وأَحْسِنُوَاْ إِنَّ اللّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِين}[البقرة:١٩٥].

ومن مظاهر الإتقان الرفق والتأني، وإن من أهم أركان الصلاة: الاطمئنان فيها، والطمأنينة كما تكون في القلب، هي كذلك مطلوبة هنا في الجوارح، حتى يعود كل عضو إلى موضعه، ويستقر كل مفصل في موقعه: (ثُمَّ ارْكَعْ حَتَّى تَطْمَئِنَّ رَاكِعًا، ثُمَّ ارْفَعْ حَتَّى تَعْدِلَ قَائِمًا، ثُمَّ اسْجُدْ حَتَّى تَطْمَئِنَّ سَاجِدًا، ثُمَّ ارْفَعْ حَتَّى تَطْمَئِنَّ جَالِسًا، وَافْعَلْ ذَلِكَ فِي صَلاَتِكَ كُلِّهَا)[3].

والأمر بالسكينة كما هو مطلوب فيها هو مطلوب أيضا خارجها وفي السعي إليها، وهذا غير معارض بما سبقت الإشارة إليه من الحث على المسابقة والمسارعة إليها، فذلك كان على سبيل الحض بالمبادرة إليها، والحث على إدراكها في أول وقتها؛ دون توانٍ أو تباطؤ أو كسل؛ لإغلاق باب التسويف والتساهل والاتكال والتواكل في أدائها، وليس المراد إتيانها على جهة السرعة والاستعجال، فإذا ما مشى إليها فهو في صلاة، فليأتها، بالسكينة والوقار: (إِذَا أُقِيمَتِ الصَّلَاةُ فَلَا تَأْتُوهَا تَسْعَوْنَ، وَأْتُوهَا تَمْشُونَ

---

(١) حسن :صحيح الجامع الصغير وزيادته (١/ ٣٨٣)

(٢) صحيح البخاري (٨/ ١٠٥)

(٣) صحيح البخاري (١/ ١٥٢)، صحيح مسلم (١/ ٢٩٨)

وَعَلَيْكُمُ السَّكِينَةُ، فَمَا أَدْرَكْتُمْ فَصَلُّوا، وَمَا فَاتَكُمْ فَأَتِمُّوا)[1]

ومن حيث المظهر العام فأول ما أمر به أن تكون الصلاة في صورة صفوف دون غيره من الأشكال، والصفوف كانت وستظل أبرز علامات الاستقامة والانتظام، فقال: (أَلَا تَصُفُّونَ كَمَا تَصُفُّ الْمَلَائِكَةُ عِنْدَ رَبِّهَا؟» فَقُلْنَا يَا رَسُولَ اللهِ، وَكَيْفَ تَصُفُّ الْمَلَائِكَةُ عِنْدَ رَبِّهَا؟ قَالَ: «يُتِمُّونَ الصُّفُوفَ الْأُوَلَ وَيَتَرَاصُّونَ فِي الصَّفِّ)[2]. وجعل تسويتها من متمماتها: (فإن تسوية الصفوف من تمام الصلاة).

ثم يأتي التوجيه بالانسجام التام، بأن تنتظم حركة المجموع مع بعضهم، ومع إمامهم، بل جاء الحض على استحضار صورة التوافق حتى مع الملائكة، مع أنه أمر غيبي يستحيل إدراكه، إلا أنه جاء الحض على مراعاته، ومن مضان موافقتها تحري الدقة في تعقب تأمين الإمام: (إِذَا أَمَّنَ الإِمَامُ فَأَمِّنُوا، فَإِنَّهُ مَنْ وَافَقَ تَأْمِينُهُ تَأْمِينَ الْمَلائِكَةِ: غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِه)[3]، ثم ثنى بالتحذير والنهي من قطع الصفوف أو حرف استقامتها أو تخلخلها وعدم التئامها فقال: (أَقِيمُوا الصُّفُوفَ وَحَاذُوا بَيْنَ الْمَنَاكِبِ وَسُدُّوا الْخَلَلَ وَلِينُوا بِأَيْدِي إِخْوَانِكُمْ وَلَا تَذَرُوا فُرُجَاتٍ لِلشَّيْطَانِ وَمَنْ وَصَلَ صَفًّا وَصَلَهُ اللَّهُ، وَمَنْ قَطَعَ صَفًّا قَطَعَهُ اللَّهُ)[4].

وبعد أن أمر بملازمة الدقة في متابعة الإمام، في قراءته وحركاته وتنقلاته، يأتي النهي والتحذير من أي نمط يوحي بالعجلة والخروج عن مقتضى دقة المتابعة والانتظام: (لَا تَسْبِقُونِي بِالرُّكُوعِ وَلَا بِالسُّجُودِ، وَلَا بِالْقِيَامِ وَلَا بِالِانْصِرَافِ)[5]. إن لهذه الحفاوة والاهتمام بأمور لا تعدو كونها شكلية؛ ليعطي انطباعا عاما بمكانة النظام، ونبذ العشوائية والارتجالية الفوضوية في عبادات المسلم وفي حياته كلها، وفي الصلاة يتعزز هذا السلوك في شعور ووجدان المسلم، ولم لا ومعبوده هو البديع في خلقه، الحكيم في صنعه، الذي أحسن كل شيء خلقه فقدره تقديرا، وأن انتظام المسلم في الصلاة؛ ليحاكي به ما أودعه الله في هذا الكون المترامي الفسيح من نظام وإبداع: **{الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا مَّا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِن تَفَاوُتٍ فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَى مِن فُطُور ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِئاً وَهُوَ حَسِير}[الملك:٣:٤]**، أي: عليل وكليل من شدة الإعياء والتعب أن يجد عيبا أو خللا في ملكوته

---

(١) صحيح مسلم (١/ ٤٢٠)

(٢) صحيح مسلم (١/ ٣٢٢)

(٣) صحيح البخاري (١/ ١٥٦)، صحيح مسلم (١/ ٣٠٧)

(٤) سنن أبي داود (١/ ١٧٩)

(٥) صحيح مسلم (١/ ٣٢٠)

سبحانه، فإذا ما وجدت حال المسلمين تغلب عليه الفوضى والعشوائية فارجع البصر كرتين في صلاتهم فستجد ثم هناك أساس المشكلة، فلم يفهموا عن الله مراده، ولم يلهمهم الوقوف بين يديه كيف ينتظم قيامهم في سلك ملكه البديع، وترتسم سلوكياتهم وحركتهم في الحياة وفق درب منهجه القويم: **{أَفَمَن يَمْشِي مُكِبًّا عَلَى وَجْهِهِ أَهْدَى أَمَّن يَمْشِي سَوِيًّا عَلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيم}[الملك:٢٢]**.

ولا تزال الآيات تتوالى في حثهم على التزام الدقة فيها حتى غدت ساعة تنتظم بها الحياة، وتقويما تضرب بها الآجال: **{تَحْبِسُونَهُمَا مِن بَعْدِ الصَّلاَةِ فَيُقْسِمَانِ بِاللّهِ إِنِ ارْتَبْتُمْ لاَ نَشْتَرِي بِهِ ثَمَنًا}[المائدة:١٠٦]**، وميثاقا تبرم به العقود والعهود، وتصان به الذمة، وتحفظ به الحقوق: (الْعَهْدُ الَّذِي بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمُ الصَّلَاةُ، فَمَنْ تَرَكَهَا فَقَدْ كَفَرَ)[(١)]، ومعلما من معالم الأدب والتربية والتعليم: **{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِيَسْتَأْذِنكُمُ الَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ وَالَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا الْحُلُمَ مِنكُمْ ثَلاَثَ مَرَّاتٍ مِن قَبْلِ صَلاَةِ الْفَجْرِ وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُم مِّنَ الظَّهِيرَةِ وَمِن بَعْدِ صَلاَةِ الْعِشَاء}[النور:٥٨]**، ونقطة انطلاق للعمل والاكتساب: **{فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلاَةُ فَانتَشِرُوا فِي الأَرْضِ وَابْتَغُوا مِن فَضْلِ اللَّهِ وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُون}[الجمعة:١٠]**، وموعدا للراحة والدعة: (**كَانَ يَكْرَهُ النَّوْمَ قَبْلَ العِشَاءِ وَالحَدِيثَ بَعْدَهَا**)[(٢)]، بل حتى في ساعات الحرب والسلم كانت الصلاة حاضرة تعمل في أصحابها إحجاما وإقداما: (**لَمْ يَكُنْ يَغْزُو بِنَا حَتَّى يُصْبِحَ وَيَنْظُرَ، فَإِنْ سَمِعَ أَذَانًا كَفَّ عَنْهُمْ، وَإِنْ لَمْ يَسْمَعْ أَذَانًا أَغَارَ عَلَيْهِمْ**)[(٣)]. وهذا ما جادت به سورة براءة في مطلعها، معتبرة إقامة الصلاة إحدى الصور التي ينتهي معها القتال: **{فَإِن تَابُواْ وَأَقَامُواْ الصَّلاَةَ وَآتَوُاْ الزَّكَاةَ فَخَلُّواْ سَبِيلَهُمْ}[التوبة:٥]**. (**أُمِرْتُ أَنْ أُقَاتِلَ النَّاسَ حَتَّى يَشْهَدُوا أَنْ لاَ إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ، وَيُقِيمُوا الصَّلاَةَ..**)[(٤)].

المطلب التاسع/ صلاة من لم تحدث في نفسه صلاحا:

فرض الله الصلوات الخمس، وجعلها موزعة على ساعات الليل والنهار: **{أَقِمِ الصَّلاَةَ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ إِلَى غَسَقِ اللَّيْلِ}[الإسراء:٧٨]**؛ فإذا فرغ المرء من أشغاله وواجباته هرع إليها، وكلما نشطت نفسه، ووجد متسعا من الوقت انتصب لها، وانكب عليها: **{فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَب}[الشرح:٧]**، وكلما ازداد تطوعا منها تاقت نفسه للمزيد منها: **{وَإِلَى رَبِّكَ فَارْغَب} [الشرح:٨]**؛ لتبقى آثارها حاضرة على مدار الساعة، وتلقي بظلالها على الحياة كلها، فيلقي العبد عن كاهله ثقل الأوزار، ويجلي

---

(١) المستدرك على الصحيحين للحاكم (١/ ٤٨)

(٢) صحيح البخاري (١/ ١١٨)

(٣) صحيح البخاري (١/ ١٢٥)

(٤) صحيح البخاري (١/ ١٤)

عن قلبه حجب الران، ويغسل عن وجهه غبرة الذنوب، وتبقى سماتها ظاهرة بارزة في سلوك أصحابها على الدوام، وقد أخبرنا سبحانه أن للصلاة سمات وعلامات تجددها الصلوات وتعمقها السجدات، ولا تقتصر هذه السمات على ما يحدثه السجود على الجبهة من آثار مادية وتجعدات سوداوية، فهذه لا معنى لها ولا وزن، ما لم تكن سمتا وصلاحا، وهديا ونورا يمشي به صاحبه بين الناس، تحقيقا لمعنى الحديث: (وَالصَّلَاةُ نُورٌ)[1]، وهذا ما هدت إليه سورة الحديد: **{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِ وَيَجْعَل لَّكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ}[الحديد:٢٨]** وهو الذي يصيره الله يوم القيامة غرةً وتحجيلا، ونورا يسعى بين أيدي المؤمنين وبأيمانهم، كما نطقت به السورة قبلها، وكذلك المعصية تترك أثرها على قلب صاحبها وعلى وجهه، ويوم القيامة يعرف المجرمون وأهل النفاق بسيماهم فيؤخذ بالنواصي والأقدام، والعمل ينبئك عما وراء الملامح وما تخفي الصدور: **{وَلَوْ نَشَاء لأَرَيْنَاكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُم بِسِيمَاهُمْ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَالَكُم}[مُحَمَّد:٣٠]**، (آيَةُ المُنَافِقِ ثَلاَثٌ: إِذَا حَدَّثَ كَذَبَ، وَإِذَا وَعَدَ أَخْلَفَ، وَإِذَا اؤْتُمِنَ خَانَ)[2]، وقد جعل الله إقامة الصلاة من أجلّ وأبرز علامات الإيمان: **{إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللّهِ مَنْ آمَنَ بِاللّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَأَقَامَ الصَّلاَةَ}[التوبة:١٨]**، والتخلف عنها والتثاقل فيها من أبرز علامات النفاق: (وَلَقَدْ رَأَيْتُنَا وَمَا يَتَخَلَّفُ عَنْهَا إِلَّا مُنَافِقٌ مَعْلُومُ النِّفَاقِ)[3]، **{وَإِذَا قَامُواْ إِلَى الصَّلاَةِ قَامُواْ كُسَالَى يُرَآؤُونَ النَّاسَ وَلاَ يَذْكُرُونَ اللّهَ إِلاَّ قَلِيلا}[النساء:١٤٢]**.

أما من لم يُقمها، أو لم يَقم فيه أثرها ولم تحمله على صلاح حاله، فقد وردت نصوص مصرحة بنفي قبولها وعدم جدواها في الدنيا والآخرة، ما لم تكن صلاة العبد عونا له للتحلي بأخلاق وسلوكيات مقتضياتها، وحاملة له على التخلي عن قبائح ومنكرات نقائضها. نذكر منها على سبيل المثال لا الحصر:

١- **منتهك حرمة مدينة الرسول بظلم المسلمين وإيذائهم فيها:** (مَنْ أَحْدَثَ فِيهَا حَدَثًا فَعَلَيْهِ لَعْنَةُ اللهِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ، لَا يَقْبَلُ اللهُ مِنْهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ صَرْفًا، وَلَا عَدْلًا)[4]، وقد فسر قوله

---

(١) صحيح مسلم (١/ ٢٠٣) قال النووي : نور أي: انها تمنع من المعاصي وتنهى عن الفحشاء والمنكر وتهدي إلى الصواب كما أن النور يستضاء به

(٢) صحيح البخاري (١/ ١٦)

(٣) صحيح مسلم (١/ ٤٥٣)

(٤) صحيح مسلم (٢/ ٩٩٤)

صرفا ولا عدلا: بأن الصرف الفريضة. والعدل النافلة. قاله الجمهور[1].

٢- **إخفار ذمة المسلمين ونقض عهودهم**: (ذِمَّةُ المسْلِمِينَ وَاحِدَةٌ، فَمَنْ أَخْفَرَ مُسْلِمًا فَعَلَيْهِ لَعْنَةُ اللَّهِ وَالملاَئِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ، لاَ يُقْبَلُ مِنْهُ صَرْفٌ، وَلاَ عَدْلٌ، وَمَنْ تَوَلَّى قَوْمًا بِغَيْرِ إِذْنِ مَوَالِيهِ، فَعَلَيْهِ لَعْنَةُ اللَّهِ وَالملاَئِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ، لاَ يُقْبَلُ مِنْهُ صَرْفٌ، وَلاَ عَدْلٌ)[2].

٣- **المرأة المتعطرة المتعرضة للرجال بالتأثم والافتتان**: (لَا تُقْبَلُ صَلَاةٌ لِامْرَأَةٍ تَطَيَّبَتْ لِهَذَا الْمَسْجِدِ، حَتَّى تَرْجِعَ فَتَغْتَسِلَ غُسْلَهَا مِنَ الجَنَابَةِ)[3].

٤- **عمل الكهانة الزاعمين علم الغيب ومصدقيهم**: (مَنْ أَتَى عَرَّافًا فَسَأَلَهُ عَنْ شَيْءٍ، لَمْ تُقْبَلْ لَهُ صَلَاةٌ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً)[4].

٥- **من خرج عن طاعة سيده ومولاه**: (العبد الآبق لا تقبل له صلاة حتى يرجع إلى مواليه)[5].

٦- **لاعب** القمار: (مَنْ لَعِبَ بِالنَّرْدَشِيرِ، فَكَأَنَّمَا صَبَغَ يَدَهُ فِي لَحْمِ خِنْزِيرٍ وَدَمِهِ)[6].

٧- **مدمن الخمر**: (مَنْ شَرِبَ الخَمْرَ لَمْ تُقْبَلْ لَهُ صَلَاةٌ أَرْبَعِينَ صَبَاحًا)[7].

٨- **إيذاء المسلمين وبذاءة اللسان**: (قِيلَ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ: إِنَّ فُلَانَةَ تُصَلِّي اللَّيْلَ وَتَصُومُ النَّهَارَ وَفِي لِسَانُهَا شَيْءٌ يُؤْذِي جِيرَانَهَا سَلِيطَةٌ، قَالَ: لَا خَيْرَ فِيهَا هِيَ فِي النَّارِ)[8].

٩- **التخلف عن شهود الجمعة والجماعة إلا من عذر**: (مَنْ سَمِعَ النِّدَاءَ فَارِغًا صَحِيحًا فَلَمْ يُجِبْ

---

(١) دليل الفالحين لطرق رياض الصالحين (٨/ ٦١٣)

(٢) صحيح البخاري (٣/ ٢٠) ومعنى يسعى بذمتهم. أي بأمانهم: أدناهم. أي عددا وهو الواحد، أو منزلة.
قال في شرح السنة: أي أن واحدا من المسلمين إذا أمن كافرا حرم على عامة المسلمين دمه وإن كان هذا المجير أدناهم، مثل أن يكون عبدا، أو امرأة، أو عسيفا تابعا، أو نحو ذلك فلا يخفر ذمته. ويجير عليهم أقصاهم. قال الخطابي: معناه أن بعض المسلمين وإن كان قاصي الدار إذا عقد للكافر عقدا لم يكن لأحد منهم أن ينقضه وإن كان أقرب دارا من المعقود له. اهـ

(٣) سنن أبي داود (٤/ ٧٩) صححه الالباني

(٤) صحيح مسلم (٤/ ١٧٥١)

(٥) صحيح الجامع الصغير وزيادته (٢/ ٧٥٨)

(٦) صحيح مسلم (٤/ ١٧٧٠)، وَالنَّرْدُ: شَيْءٌ يُلْعَبُ بِهِ: لسان العرب (٣/ ٤٢١)

(٧) سنن الترمذي ت شاكر (٤/ ٢٩٠)

(٨) المستدرك على الصحيحين للحاكم (٤/ ١٨٣) ووافقه الذهبي، مسند احمد (١٥/ ٤٢١) صحيح

فَلَا صَلَاةَ لَهُ)[1].

فهذه بعض الأعمال وغيرها كثير نفى رسول الله الصلاة عن أصحابها وإن أدوها بصورتها الظاهرة وأجزأتهم عن إعادتها في الظاهر، إلا أن ثوابها غير مترتب عليها؛ لعدم تحقق الأثر، فالصلاة ذات الأثر مكتملة الأركان هي التي تنفع صاحبها في لآخرة بثواب ربه، وفي الدنيا براحة باله وإصلاح حاله، وإن انكسر أو أصابه ضعف فسرعان ما ينجبر ويتماثل للشفاء، وإن طالت محنته، ما صدقت نيته وصلحت سريرته، ففي الحديث: (جَاءَ رجل إِلَى النَّبِي صلى فَقَالَ: إن فلَانا يُصَلِّي بِاللَّيْلِ فَإِذَا أَصْبَحَ سَرَقَ فَقَالَ: إِنَّهُ سَيَنْهَاهُ مَا تَقُولُ)[2] أي: ستمنعه صلاته عن سرقته.

الخاتمة

الصلاة إن أقيمت على وجهها الأكمل، بحسب مدلولها اللغوي ووصفها الوضعي ومفهومها الشرعي، أحدثت ثورة في حياة الإنسان، وشكلت نقطة تحول، ومركز إشعاع يغمر كل جوانب حياة المسلم بالنور الساطع، فيُفعم بالسعادة قلبه، وعلى هدى الله يستنير دربه، وعلى طريق الحق تستقيم خطاه، تدعوه صلاته على الدوام لكل خير وفضيلة، وتمنعه عن كل منكر ورذيلة.

سورة وثلاث آيات من كتاب الله، نكتفي بذكرها للكشف عن هداية الصلاة وأثرها في الحياة:

– أما السورة فسورة الماعون حيث حوت الوعيد لأهل الصلاة، وختمها بمثال من واقع الناس، يحكي المراد ويكشف المقصود؛ بأنه غفلة عن الحكمة وتشاغل بالشكل والمظهر–رياء وسمعة– عن المضمون والجوهر، فغدت صلاتهم عديمة الجدوى خالية الأثر، بل حجة على أصحابها؛ إذ لم يرعوا حرمتها ولم يهتدوا لمقصدها، ولا انتفعوا بهديها، دلل على ذلك بعدم بذل المعروف للناس وتقديم ما فيه عون لهم على ضروريات الحياة "ويمنعون الماعون".

– وأما الآيات فأولاها :آية العنكبوت حيث أثبت الله فيها للصلاة نهيا على أصحابها فقال: "إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر". وهذه هي الصلاة الحقيقية، مكتملة الشروط مستوفية الأركان: مزكية للنفس من كل فحش، واقية للحياة من كل منكر.

– وأما الثانية: فآية قوم شعيب؛ حيث فهموا– بطبيعة الحال– أن للصلاة أمرا ونهيا، فتُحجم صاحبها عن الوقوع في ما ينكر ويعاب، أو ترك ما يحمد ويطاب: " قالوا يا شعيب أصلاتك تأمرك أن نترك ما يعبد آباؤنا أو أن نفعل في أموالنا ما نشاء".

– وأما الثالثة فآية المعارج؛ إذ كشفت عن أثر الصلاة على طبائع الإنسان وتهذيب النفس

---

(١) المستدرك على الصحيحين للحاكم (١/ ٣٧٤) ووافقه الذهبي، سنن ابن ماجه (١/ ٢٦٠) صحيح

(٢) مشكاة المصابيح (١/ ٣٨٩)

وتزكيتها من أمراضها:" إن الإنسان خلق هلوعا إذا مسه الشر جزوعا وإذا مسه الخير منوعا إلا المصلين"

وفي هذا كفاية لبيان أثر الصلاة في تهذيب النفس وتقويم السلوك وصلاح الحال والمآل.

جعلنا الله من أهل الصدق في القول والفعال، ونفعنا بهدي كتابه وسنة نبيه في الدنيا والآخرة ويوم يقوم الأشهاد.

وصلى اللهم وبارك على نبينا مُحَمَّد وعلى آله وصحبه وسلم.

المحتويات

المقدمة ٤

المطلب الأول/ تهيئة: ٤

المطلب الثاني/ دلالات لغوية (أقيموا الصلاة): ٧

المبحث الأول: معاني الصلاة ومدلولاتها وفيه ثمانية مطالب:..... ١٠

المطلب الأول/أقيموا ودلالة التشبيه فيه :..... ١٠

المطلب الثاني/ سر القبول وخيط النجاة:..... ١٢

المطلب الثالث/ طهارة ونقاء: ١٤

المطلب الرابع/ تعقل وحضور: ١٥

المطلب الخامس/ استقامة وخشوع: ١٩

المطلب السادس/ إخبات وسكون: ٢٢

المطلب السابع / تحكم وسيطرة:..... ٢٤

المطلب الثامن/ ذكر فاعل ودعاء خالص: ٢٦

المبحث الثاني/ أعمال الصلاة وانعكاساتها على شتى مجالات الحياة: ٣٠

المطلب الأول / مسارعة للصلاة ومسابقة للخيرات: ٣٢

المطلب الثاني/ إمامة الصلاة وولاية الحكم تلازم وتشابه:..... ٣٣

المطلب الثالث/ تقدم الصفوف وقيادة الشعوب أهلية وشروط:..... ٣٧

المطلب الرابع / لا جماعة بدون وحدة والتحام: ٤١

المطلب الخامس/ الملاينة والمطاوعة ضرورة للجماعة والاجتماع:..... ٤٣

المطلب السادس/ شرط القبلة وسلامة الوجهة: ٤٥

المطلب السابع/ القرآن لسان الصلاة ودستور الحياة: ٤٧

المطلب الثامن/ شهود وإحسان ونظام وإتقان: ٤٩

المطلب التاسع/ صلاة من لم تحدث في نفسه صلاحا:..... ٥٢

الخاتمة: ٥٥
المحتويات ٥٦